زدني علماً

جورج ضو

تاريخ علم الآثار

ترجمة

بهيج شعبان

منشورات عويدات

تَاريخ

عِلم الآثَار

جورج ضو

تاريخ علم الآثار

ترجمة

بهيج شعبان

منشورات عويدات
بيروت - باريس

الطبعة الثالثة ١٩٨٢

مقدمة

ليس هذا الكتاب الصغير فهرساً ، ولا جدول مؤلفات ، حتى انه اقل من ان يكون لائحة جوائز . فهناك اسماء شهيرة غير موجودة فيه ، ولائحة بالعلماء من ذوي الفضل على علم الآثار ، وبالأماكن التي ارتادوها ونبشوها ، وبالدروس التي نشروها ، تفيض عن الفسحة التي نتصرف بها . إلا ان القارىء لن ينتظر احصاءً مملاً ، فموضوعنا واسع بشكل غريب لأنه يشمل مبدئياً علم الآثار بمجموعه ؛ والحق فقد مضى الوقت الذي كان فيه هذا العلم « اغريقياً – رومانياً » او « كلاسيكياً » فقط ، حتى ولا « من العصور القديمة » . وعلينا ان نشير الى مراحل علم لم ينقطع عن توسيع ميدانه ؛ وفي الفترة المعاصرة على الخصوص فإن علماء الآثار وكذلك الامكنة ، لم يرد ذكرهم في اغلب الاحيان إلا كمثل او برهان لتفسير ودعم ملاحظة اساسية : ومن ناحيتنا لا يوجد حكم ذو قيمة ولا اختيار اسلوبي .

وبعد شيء من التعريفات الضرورية رسمنا مخططاً تاريخياً يصبح اكثر سرعة وأكثر اختصاراً بمقدار اقترابه من السنوات العشر الأخيرة . وبالفعل ، فالفصول التالية خصصت لتلك السنوات : فصل يستعرض الاقسام التي يتوزع البحث الأثري بينها ، والفصول الاخرى تظهر كيف ان المفاهيم الحالية للأسلوب ، والحفر ، والحفظ ، والنشر تتعارض مع مفاهيم القرن الماضي . وقد أشير اخيراً الى بعض العوائق والأخطار التي تترصد علم الآثار الماضي والحاضر .

١ تعريفات

ليس من السهل تعريف العلم المسمى : علم الآثار (اركيولوجيا) . فعلم اشتقاق الكلمات « درس العتيق ، القديم » لا يعطي سوى دلالة مبهمة . وحيـــاة الكلمة عجيبة . فهي في اليونانية تتناول عهود التاريخ البعيدة والتاريخ بوجه عام ؛ ودنيس داليكارناس ، الذي كتب في عهد اوغسطس ، عنون تاريخه الكبير عن روما منذ البدء حتى حرب روما وقرطاجة باسم « الاركيولوجيا الرومانية » . وظهرت كلمة « اركيولوغ » في القرون الاولى من تاريخنا بمعنى خاص تماماً : فهي تدل ، في البلدان التي تتكلم اليونانية ، على صنف من الممثلين ، ممثلي الدراما بالإيماء الذين يمثلون الاساطير القديمة على المسرح ؛ وليس ذلـك سوى حادث عرضي : فالعبارة تموت مع الشيء . واللغة اللاتينية لم تستقبل كلمة (اركيولوغ) عالم الآثار ولا (اركيولوجيا) علم الآثار . والواقع ان هذه الكلمة بعثت من جديد ، بعد كسوف طويل ، في القرن السابع عشر بواسطة جاك سبون من ليون الذي كان يتأرجح بين شكلين : « اركيولوجيا » و « اركيوغرافيا (والخيرة ذاتها لا تزال اليوم موجودة في اكثر من علم) ؛ والشكل الثاني لم يعش ، وكان للأول حظ في جميع اللغات الحديثة ، وبصورة اضبط ، في المفردات الدولية التي تنشأ شيئاً فشيئاً لأجل المعلومات العلمية ، والتي تفرض نفسها في اللهجات الخاصة

ولكن ماذا يجب ان يُفهم ، وماذا يفهم علماء الآثار انفسهم من هـــذه اللفظة ؟ انهم يترددون ويتناقضون . فلنحاول وضع الأمر في نصابه .

لنبدأ بالقول ان علم الآثار (الاركيولوجيا) ليس هو كل دراسة الماضي؛ انـــه دراسة « الحجارة القديمة » ، وبصورة اعم ، دراسة جميع الاشكال الملموسة والمنظورة التي تحفظ أثر نشاط بشري : كهف طبيعي ، ولكن اجدادنا الأبعدين سكنوه ورتبوه قليلاً او كثيراً ؛ ترصيعات على جانب مقلع مخصصة لزوايا الخشب المشبعة بالماء وتشقق رخام البنتيليك [١] او الباروس [٢] ؛ تيجان اعمدة الاركتيون [٣] ؛ الصوان المشذب ؛ الاوتاد [٤] التي بنيت عليها القرى على شاطىء البحيرات ؛ الجام المرصع لمصرية محنطة ؛ بوابة شارتر الملكية ؛ كل هــذا ، وألف شيء بسيط او أفضل الروائع ، وأخيراً كل مـا هو الأثر الحقير او العظيم للصناعة والفن البشريين خلال القرون ، ان هذا كله يختص بعلم الآثار .

ومن ناحية موجزة ، فاننا فعلاً نملك وسيلتين لمعرفة الماضي : علم الآثار وعلم اللغات ، واحد يهتم بالأشياء والأشكال المادية ، والآخر بالنصوص [٥]

١ — البنتيليك Pentélique : جبل أتيك بين اثينا وماراتون . وهو مشهور بمقالع الرخام الابيض .

٢ - باروس Paros : احدى جزر سيكلاد الى الجنوب من ديلوس ، وهي مشهورة في السابق برخامها الناصع البياض .

٣ — الاركتيون Erechthéion : معبد اقـيم على اكروبول اثينا ، ورواق « الكارياتيد » جزء منه .

٤ — الاوتاد Pilotis : مجموع اوتاد تغرز في الماء لتدعيم اساس بناء .

٥ — يجب الحذر من ان الكلمتين المركبتين «فيلولوجيا» و « اركيولوجيا » هما متعاكستان ؛ ففي « فيلولوجيا » فـــان العنصر الاول يحكم الثاني ؛ وفي « اركيولوجيا » وفي جميع الكلمات المنتهية باللاحقة Logie تقريباً ، فالأمر هو العكس . ان المفردات العلمية تنقصها الوحدة ، والبساطة ، والمنطق . ونتأكد من ذلك اكثر من مرة ، أثناء سيرنا .

والبارتينون ينتمي الى ذاك ، وافلاطون ينتمي الى هذا . وكل ما نقل إلينا عن طريق اللغة فهو ميدان علم اللغات (الفيلولوجيا) ، أما الاشياء ، من جميلة وقبيحة ، فهي ميدان علم الآثار (اركيولوجيا) . مطابقة جميلة ولكنها جلية ، وحين يُنظر اليها عن قرب تتضاعف الصعوبات والشكوك .

وقبل كل شيء فالفصل بين العلمين ليس واضحاً : فهما يغطيان بعضهما البعض . ان كثيراً من الدلالات لا غنى عنها لعالم الآثار في النصوص الاغريقية او اللاتينية التي وصلت الينا ، فبعضها يسمح له بشرح الابنية الاثرية من كل نوع بشكل أفضل ، والبعض الآخر يقدم له المعلومات عن اعمال وأشياء لم يبق لها أي أثر مادي ، ولا يمكن درس النحت الاغريقي دون اللجوء الى « التاريخ الطبيعي » تأليف بلين لانسيان : الكتب الأخيرة منها مخصصة للمعادن والفنون التي تستعملها ، وفيه جدول بالفنانين الرئيسيين القدماء وبأعمالهم الأكثر شهرة ؛ وليس بلين سوى مثل بين كثيرين غيره ، وعلينا ان نعود الى المصادر « الادبية » لعلم الآثار . وعالم اللغات ، بخلاف ذلك ، يجني مغانمه من قلب علم الآثار . وهناك صنف مبهم بين الاشياء التي يهتم بها علم الاثار : التدوينات ؛ لقد اكتشفت في الحفريات ، وغالباً ما تكون محفورة على ابنية أثرية : الكتابة على أنصاب القبور ، وإهداء المعبد او التمثال يهمّان عالم الآثار لأول وهلة ، ومقابل ذلك ، فالقوانين ، والعقود والانظمة الدينية ، حتى لو كانت محفورة في الرخام او في البرونز ، وحتى لو لم تصل إلينا عن الطريق التقليدي ، طريق المخطوطات ، وحتى لو احتجنا الى معول المنقب لنكشفها ، فانها تنتمي الى عالم اللغات ، الى علم اللغة والفكرة المنقولة بواسطة اللغة ، والملاحظة تصلح لورق البردي المصري لأسباب وجيهة : فأوراق البردي سواء استعملت لحفظ الجثث او رفضت وألقيت في النفايات التي تتكدس حول المدينة ، فانها ستعطي لعالم

اللغة الذي يبذل جهده في حل رموز النص بعد معالجات تكون دقيقة احياناً . واستقلال ورق البردي مطلق من الناحية العملية بالنسبة للأبنية الأثرية ، ومن المفضل تصنيف علم اوراق البردي Papyrologie بين علوم اللغات . ومقابل ذلك فان لعلم النقوش Epigraphie جذوراً متينة في علم الآثار : فهو نظام مختلط تقريباً . ومع ذلك فسواء أكان الأمر يتعلق بنقش ، او برسم او بطبع على الخشب ، وعلى الفخار ، وعلى الحجر ، وعلى المعدن ، وعلى الرق او على الورق ، فاللغة البشرية لم تحفظ لنا إلا تحت شكلٍ علامات منظورة (ربما تغير مجموعات الاسطوانات او الافلام ذات يوم كل هذا ، ولكن مهمتنا هنا ليس ان نتوقع) ؛ وبهذا المظهر المادي (الفباء ، اشكال حروف ، شواغل فن الخط الجمالية) تشترك جميع الدراسات التي تهتم بالكتابة بعلم الآثار .

وبالفعل ، فان العلاقة المتبادلة لفرعي البحث التاريخي الكبيرين تسير الى أبعد من بعض ملاحظات قمنا بها ؛ فهي ليست جزئية ، انها كلية ، وحين يوجد تقليد مكتوب ، تحت شكلٍ ما ، فان على عالم الآثار الرجوع اليه في كل لحظة ، وكذلك فعالم اللغات لا يستطيع تفسير او احياء نصوصه إلا بمساعدة الاشياء الاثرية من كل نوع كمعابد فاخرة او اشياء صغيرة تافهة من الحياة اليومية .

وبعد ، فعلم الآثار لا يعتمد على علم مؤاخٍ له فقط ، فهناك طرق اخرى للبحث تقدم له معونات قيمة ، وفي طليعتها الانتروبولوجيا [١] ، بالمعنى الضيق والطبيعي البحت للكلمة . « كانت العادة في الماضي ان يشار بلفظة « انتروبولوجيا » الى علم الانسان بمجموعه ، وهو علم معقد تماماً

---

١ — Anthropologie : علم طبائع الانسان .

وذو مظاهر متنوعة جداً . ولكن معنى الكلمة حُصر شيئاً فشيئاً ولم يعد يظهر تحت هذا العنوان سوى درس الاعراق البشرية من الوجهة الطبيعية . وازداد جنوح لفظة اتنولوجيا الى ان تحـل محل لفظة انتروبولوجيا في معناها الاول » (ب. لستر) . ويميل علم الانتروبولوجيا الى ان يحـدد ، بمساعده الهياكل المظمية البشرية ، العرق او الاعراق التي يجب ان تعزى اليها الآثار المكتشفة بواسطة ارتياد علم الآثار ، اما الجيولوجيا والجغرافيا فتحدد الوسط الطبيعي الذي نما فيه نشاط الاجيال البشرية ؛ وتتوقف الزخرفة بجميع اشكالها ، وبشكل واسع ، على مجموع الحيوانات ومجموع النباتات المحلية ، فالبط والبقريات المصرية ظلت مشابهة لذاتها خلال اربعة آلاف سنة ، ومنقارها وقرونها المميزة موجودة على نتوءات القبور القديمة ، ودراسة الحيوانات والنباتات المتحجرة هي المساعد الذي لا غنى عنه لآثار ما قبل التاريخ . وماذا نقول عن الاتنوغرافيا — علم خصوصيات الشعوب — ؟ انه مشترك اشتراكاً وثيقاً مع علم الآثار : ولنذكر هـذا التعريف الذي وضعه ب. ريفيه « لقـد اخذوا يشيرون بكلمة اتنولوجيا في فرنسا ، كما تحقق ذلك في اميركا الشمالية (مكتب الاتنولوجيا) وفي المانيا ، الى العلم المركب من العـلوم المخصصة لدراسة الاعراق ، والحضارات ، والمجتمعات ، واللغات : انتروبولوجيا جسمانية ، اتنوغرافيا (مع فروعها المتنوعة : ما قبل التاريخ ، علم الآثار ، فولكلور) ، وعلم الاجتماع وعلم اللغات ، الخ ». ان علم الآثار العائد لما قبل اكتشاف كولومبس ، او الافريقي ، لا يُفهم بدون الإستعانة الدائمـة بالاتنوغرافيا ، أي بدراسة الاخلاق والعادات والأديان المعاصرة ، والتي جمّدها التقليد بشكل يكثر او يقل ، والتي هي صالحة لاعطاء معلومات حول آثار الماضي ، وعلى مداخل كاتدرائياتنا حيث تسجل دورة الاشغال البشرية ، نجد ادوات مصورة على الحجر ، قد حُفظ

شكلها واستعمالها الى ايامنا هذه . وبالرغم من الغزوات والانقلابات السياسية يحدث ان تبقى العادات : ان المحيط الاثري الذي جرت فيـــه حوادث الاوديسه يُفهم بشكل افضل لو قـاسمنا البحارة الاغريق في الارخبيل او في الجزر الايونية حياتهم .

وللاختصار ، اكتفيت باعطاء عدد صغير من الامثلة ، وهي كافية للدلالة على مقدار حـيرة حدود علم الآثار وكم ان العلوم المجاورة ضرورية له . والحق انه لا يوجد هنا شيء غير عادي ؛ فالعلاقة المتبادلة بين عدة علوم هي عمل ملاحظة يومية في جميع ترتيبات البحث العلمي . ولكن ها هي صعوبات اكثر خطورة فيما يتعلق بعلم الآثار .

اولاً تتضمن كلمة (اركيولوجيا) علم الآثار فكرة العصور القديـمة ، من ناحية اشتقاق الكلمة ومن ناحية الاستعمال . واما يكن هناك ، ولفـترة طويلة ، علم آثار سوى « كلاسيكي » او مصري . ام غير ذلك فقد ولد في القرن التاسع عشر وسنعيد النظر به في الفصل الرابع . وليس تثبيت الحد الاعلى صعباً في الزمن : فما ان يوجد عمل بشري حتى يتدخل علم آثار ما قبل التاريخ . أما الحد الادنى ؟.. لنجب بصراحة انه غير موجود وأن المنطق ليس سيداً في هذا الميدان . والقرون الوسطى مادة اركيولوجية — فهناك اركيولوجية خاصة بالقرون الوسطى — أما القرن التاسع عشر ، والقرنان او الثلاثـة قرون التي تسبق ، فـــلا . اننا نلتقي دائماً بكلمة « اركيولوجية عصر النهضة » ويبدو تصور التغلغل في الماضي غير مفترقٍ عن اللفظة ، ولكن هـذا التصور مبهم . ولا يبقى هناك شك لو اخذت امثلة متباعدة بشكلٍ كافٍ عـن الحد المبهم الذي ينشئه عصر النهضة : درس فن الرسم الهليني والروماني ، النحت المصري ، السيراميك الاغريقي ، كل هذا من الاركيولوجيا ، أمـا درس فن الرسم الرومنطيقي ، وبورسلين السيفر *Sèvres* ، وأعمال باري *Barye* اورودان ، فهذا ليس من الاركيولوجيا .

ويوجد هنا عدم منطق مقلق جداً ، اننا أسرى كلمة ولدت في القرن السابع عشر ، أي في لحظة كانت فيها عيون العلماء والفنانين ملتفتة نحو العصور القديمة الكلاسيكية ، واغتنت الكلمة قليلا بقدر اتساع ميدان النظام الذي تشير اليه ، ولكنها تظل موسومة بأصلها وتبدو اليوم كثيرة الضيق . وبالفعل كيف سيدعى العلماء الذين يهتمون بديلاكروا وروودان ؟ مؤرخي فن دون شك[1] . يوجد منبر لعلم الآثار وتاريخ الفن في كثير من جامعاتنا في الاقاليم ، ويجب ألا نفهم بذلك نظامين متميزين بل نظاماً واحداً مطبقاً على عصور متميزة . نفس الاصطلاحات المشوشة في لوائح مكتباتنا المنسقة . ودار نشر فرنسية تنشر مجموعة من الكتب المختصرة في علم الآثار وتاريخ الفن ، على نمط واحد في مفهومها . أما بيرّو وشيبيز *Chipiez* فقد كتبا كتابها الفخم « تاريخ الفن في العصور القديمة » (١٨٨٢ — ١٩١٤)ولم يتصورا مؤلفهما سوى انه علم الآثار المصري، الشرقي ، الاغريقي .

ماذا يستنتج من ذلك ؟ ان كلمة (اركيولوجيا) موسومة جداً بأصلها واستعمالها لتتناول الازمنة الحديثة وإن « تاريخ الفن » يحضّر عبارة مماثلة إما للفترة الممتدة من عصر النهضة الى ايامنا ، وإما مع الاركيولوجيا للفترة السابقة لذلك . لن اعارض هذا مع القيام بتحفظ هام قد اقترح سابقاً : تشغل الاركيولوجيا صعيداً اكثر اتساعاً من تاريخ الفن ، وتهتم بالمظاهر والنشاطات البشرية ، أي لا مكان فيها للفن على الأقل او لأشكال الفن العليا . والواقع ان بعض العهود مثقلة بالجمال الى درجة ان اقل الاشياء هي ذات قيمة . وقد قدمت تخريبات الزمن المعونة فلم تترك لنا

---

١ — الصحيح ان اللفظة تتناول بشكل سيء ميداناً اكثر بساطة . ويوجد هنا صعوبة في الاصطلاحات لا تحل : العالم الذي يجمع مستندات حول ادوات البيت في بومبيي هو عالم آثار ؛ أما الذي يتابع نفس البحث حول عصر لويس فيليب لا يمكن ان يدعى « مؤرخ فن » ؛ ليس له اسم جنسي .

سوى آثار تذكارية تتعلق بتاريخ الفن ؛ ان نصيب الفن في آثار عصر بركليس اكبر كثيراً منه في عصر بلاد الغول الرومانية [١] .

ولكن المشكلة الحاسمة ليست هنا ، تلك التي كان في نيتنا تجنبها حتى الآن والتي لا يزال لدينا وقت للتصدي لها . والواقع اننا تصرفنا كما لو ان علم الآثار وتاريخ الفن كانا على نفس المخطط ، وأحياناً تتقرر مراتب بين الواحد والاخر ، فيقتصر دور علم الآثار على جمع المواد التي يجهز بها تاريخ الفن . ويقال أيضاً ان علم اللغات يدرس النصوص من ناحية اللغة (قواعد اللغة ، مفردات ، قواعد الانشاء ، الخ) . لإيداعها مؤرخ الأدب بعد ذلك . لنقبل بهذا التعريف المزدوج [٢] لأجل سهولة ما يلي من الشرح ، ولنصرف النظر أيضاً عن « اللون » القديم المتعلق بكلمة اركيولوجيا ، ولنفرض لفترة ان نشاط عالم الآثار يمتد الى جميع عصور الماضي ، مهما كانت قريبة من الحاضر . إذن فاننا ننتهي الى الخط البياني التالي ، ان معرفة النشاط البشري تقتضي مرحلتين : اولاً : وصف وتحليل المصادر : اشياء (اركيولوجيا) ونصوص (فيلولوجيا) ، وثانياً : استعمال المصادر : تاريخ الأدب والفكر والفن والمعاهد ، الخ . (لن نعقد الأمور ولندع جانباً ، باستثناء نقد الفن ، الفلسفة وخصوصاً فلسفة الفن والجمال التي يمكن ان تمثل مرحلة ثالثة سامية) .

---

١ — يشير القدماء بهذا الاسم الى اراضي ايطاليا الشمالية التي احتلتها القبائل الغالية فترة طويلة .

٢ — سأذكر للقارىء الذي سيصاب بالدهشة من جراء ما قمنا به من مناقشة ، ما ورد حول كلمة « فيلولوجيا » في الكتاب الصغير الممتاز « معجم المصطلحات اللغوية » تأليف ج . ماروزو (١٩٣٣) : « تطبق الكلمة عادة على الثقافة الادبية بوجه عام ، ولكنها تدل بصراحة ، وباستثناء الانظمة التاريخية البحتة (تاريخ علوم العصور القديمة) على دراسة الوثائق المكتوبة وعلى شكل اللغة التي يعرفوننا عليها ، وبشكل خاص أيضاً على دراسة النصوص وانتقالها ، باستثناء دراسة اللغة ، المحتفظ بها لعلم اللغات . وتدعى احياناً قواعد اللغة او علم اللغات بعلم اللغات المقارن . وهناك شكوك مماثلة حول كثير من الألفاظ المنتمية الى العلوم الانسانية .

وهكذا ، فعالم الآثار يجد الوثائق ، والقياسات ، والطبقات ، والاوصاف، والرسوم ، والصور ، وتتوقف مهمته هنا ، وعندئذ يتدخل المؤرخون الذين سيستعملون المستندات الموضوعة تحت تصرفهم ، ومن بينهم مؤرخ الفن والحضارة . نظرة نظرية ، نظرة مبسطة ! انها تصلح لبعض اصناف الوثائق : في كل مكان في اوروبا تقريباً ، يكتشف العلماء في الحفريات ويصنفون وينشرون بعناية زائدة ، نتفاً من آنية تعود الى ما قبل التاريخ . ويمكننا القبول بأن عمليات النشر هذه تشكل قسماً متمماً للمرحلة الاولى ؛ ولن يدخل مؤرخ الحضارة الى المسرح إلا حين تسمح له كدسة المواد بإلقاء نظرة على المجموع . لقد اصبح البحث الاركيولوجي كثير التعقيد ، كثير الدقة بحيث اصبح من المفيد تنحية قسم من الشغيلة للقيام بمهمة مادية ذات صفة تمهيدية . ولكن التمييز في اغلب الاحيان بين علم الآثار وتاريخ الفن لا معنى له . فدرس الاشكال لا يقتضي خطوتين مستقلتين بل يقتضي امتلاكاً كلياً يضطر الباحث الى الاستعانة بجميع الوسائل التي تحت تصرفه . لنأخذ مثلاً بسيطاً : من المستحيل تقريباً (والتجربة تثبت ذلك) ان ننسخ بشكل مضبوط نصاً مكتوباً بحروف لا نعرفها ، والمرء بنقله نصاً مسمارياً او عربياً او صينياً ، سيرتكب اخطاء فظيعة ، ويستحيل تقريباً على رسام غير معتاد على فن اقليمي وتطوره ان ينقل أثراً فنياً دون ان يشوه نسقه : وهذا ما حدث للفنانين الفرنسيين الذين اخذهم نابليون الى مصر — ولنذكر حالة معينة من الف حالة — ، فقد وحدوا بين أشكال نتوءات المنحوتات في عصور مختلفة وأنماط متنوعة يدركها العارف . وكذلك فعالم الآثار لا يستطيع ان يصف إلا ما يفهمه جيداً ، ولفهم أثر ما فهماً جيداً يجب ان يكون المرء عالماً بشكل غير عادي : ومن السذاجة الكبرى الظن ان بالإمكان وصف تاج محل دون ان يكون المرء خبيراً بتاريخ الهندسة المعمارية الاسلامية ، او وصف البارتنون دون ان يعرف الخطوط الكبرى وأدق التفاصيل من الحضارة والفن الاغريقيين . وعلى

عالم الآثار ، ليقوم بمهمته خير قيام ، ليس فقط ان يدرس اكبر عدد ممكن من الآثار المعروفة (ان رؤية أثر فني تعني عدم رؤية شيء ، ورؤية الف أثر فني تعني رؤية أثر واحد) [1] . ويجب ان يكون مؤرخاً ايضاً وأن يدرك علاقات التاريخ والتأثير . وليس هناك من هو مؤهل افضل منه للوصول الى جمع الأجزاء المتفرقة والنظرات الشاملة لأجل تحديد فائدة وهدف الطرفة الفنية التي اكتشفها او وصفها . إذن لن نفهم ابداً كلمة اركيولوجيا بالمعنى الضيق الذي يجعلها معارضة لتاريخ الفن ، ان الأمر بعكس ذلك ، فنحن نحرص على ان يؤلف هذا وذاك جسماً واحداً .

من الممكن ان تأتي بعض الصعوبات التي لاقيناها من اننا اعتبرنا علم الآثار ، بوجه عام ، ككل . فهل علم الآثار (اركيولوجيا) بصيغة المفرد موجود ؟ هناك علوم آثار (اركيولوجيات) خاصة لكل منها متطلباته ومشاكله ، وهي لم تنشأ في آن واحد ، وتهتم بأنواع من الاشياء مختلفة اكثر مما يمكن التصور (هناك عهود بكاملها من آثار ما قبل التاريخ لم تمثل بسوى نتف من إناء دون زخرفة او بزخرفة بدائية ؛ أما علم الآثار الاغريقية فبالعكس لأنه يدرس آثاراً فنية لا مثيل لها) . وتغطي فترات من الزمن او اراضي بعيدة جداً عن بعضها البعض دون أي اتصال ظاهر وليست لها نفس الاساليب . ولن يكون نقاشنا النظري على غير طائل اذا ساعد في الدلالة على العوائق التي يصطدم بها تعريف موحد . وسيكون من المناسب في نهاية بحثنا استخلاص ملامح مشتركة من كل هذه الانظمة . ولكن الوسيلة الوحيدة للنظر بوضوح هي اولاً اجتياز بعض المراحل التي تقود الى غطٍ ضخمٍ لعلم الآثار ، ولعلوم الآثار ، منذ حوالي خمسين سنة .

وقبل ان نترك هذا الفصل من التعريفات لن يكون بدون فائدة ان نعود بسرعة الى أهم الفروع التي تؤلف البحث الاركيولوجي . فالطوبوغرافيا

---

١ — قال هذه العبارة ادوار جرهارد ، وهو عالم آثار الماني من القرن التاسع عشر .

علم يتعلق بوضعية وتوزيع وأسماء السكان ودراسة هذه الاسماء من الناحية اللغوية والتاريخية. ودراسات الهندسة المعمارية تهتم بفن البنـــاء الديني، والمدني، والحربي؛ وحين تمتد الى مجموعات، فيما وراء الآثار الفنية المنعزلة فقد جرت العادة ان يتناول الكلام هندسة المـــدن *Urbanisme* (الكلمة جديدة أما الشيء فلا)، ومن شأن هـذا الفرع من الهندسة المعمارية ليس فقط رسم مخططات للمدن، فهو يهتم بجميع المشاكل الناشئة عـن حياة الاحتشاد (سواء أكان صغيراً ام كبيراً). أمـا فن الرسم فليس بحاجة الى تعريف. والنحت هو فن إعادة التكوين في مـــادة صلبة (خشب، حجر، برونز، عاج)، بشكل ناتيء منخفض او مرتفع، وبنقش كله بارز. والفن التشكيلي (البلاستيك) يتألف في الاصل من قولبة مـــادة رخوة (شمع، فخار) ولكن بمـا ان هذه القولبة، كقاعدة عامة، تشكل اول مرحلة من فن النحت الصرف، فان كلمة «بلاستيك» تفهم بمعنى النحت في اغلب الاحيان. وفن الحفر على الحجارة الكريمة *Glyptique* هو فن حفر الحجارة الدقيقة إما بالتجويف وإما بالبروز. ودراسة الاختام مهما كانت مادتها وطرازها تدعى سيجيللوغرافيا *Sigillographie*، أي فن الاختام. أما النقود فهي موضوع علم المسكوكات القديمـة *Numismatiqus*. وكل مـا يتعلق بالسيراميك، أي فـــن الخزّاف وصنع المواد الخزفية من الطين، والخزف المطلي والبورسلين، فهو موضوع عـــلم السيراميك. وعلم النقوش *L'épigraphie* يدرس التدوينات (نصوص محفورة في مادة صلبة). وعلم اوراق البردي *Papyrologie* يدرس الوثائق المكتوبة على اوراق البردي. وعلم قراءة الكتابات القديمة *Paléographie* يتألـف من حل رموز الكتـابات، ومن الافضل استعمال هـــذه الكلمة للمخطوطات على الرقاق والصكوك وشهادات القرون الوسطى. وعلم المترولوجيا *Métrologie* هو علم الاوزان والمقاييس.

وهذا التعداد الذي ذكرناه غير متلاحم ولا مستوعب . فهو غير مستوعب لأنه يترك جانباً كثيراً من الاعمال والاشياء التي تتعلق دراستها بعلم الآثار ولكن ليس لها اسم خاص . وهو غير متلاحم لأن العلوم المدرجة فيه ليست على مخطط واحد : فعلم المسكوكات القديمة او علم الاختام يدرس اشياء مجمعة وفقاً للوظيفة ، وعلم السيراميك او ورق البردي يدرس اشياء مجمعة وفقاً للمادة ، الخ .

وعدا ذلك يظهر في الاصطلاحات عدم كفاية وحيرة مقلقة جداً ، فإذا كانت السيراموغرافيا هي دراسة السيراميك ، والابيغرافيا هي دراسة المخطوطات ، الخ . فلا يوجد أية كلمة للدلالة على درس فن الحفر او هندسة البناء . ففي فن الحفر والسيراميك يوجد فن صانع الدمى من الفخار ، وهذا الصانع يسمونه كوروبلاست او كوروبلات (اشكال اغريقية) ، ويدعى فنه كوروبلاستي او كوروبلاتي ، ولكن في اغلب الاحيان يتكلمون ببساطة عن « طين مشوي » (= دمى من طين مشوي) ، « تاناغرا *Tanagras* » ، الخ . وفضلاً عن ذلك فدرس هذا الفن الهام جداً ليس له اسم خاص . وكلمة *Glyptothèque* التي تدل فقط على مجموعة من الحجارة المحفورة ، تطبق في البلدان التي تتكلم اللغة الجرمانية على متاحف النحت . وتهدف لغة علم الآثار اكثر فأكثر الى اختيار هذا الاستعمال . وكلمة *Toreutique* تدل في اللغة اليونانية على فن نحت وحفر المعادن ، وبالمعنى الاول لا تطبق الكلمة على السبائك البحتة ، إلا اذا كان قد اعيد شغلها بواسطة مقص صانع البرونز ، ولكن هذا التمييز لا يلاحظ بصورة دائمة ، ويذهب بلين الى درجة اطلاق اسم *Toreutique* على كل نحت وقسمته الى نحت الحجر ونحت البرونز .

وليست هذه الفوضى عملاً شاذاً ، فمشكلة الاصطلاحات موجودة في كثير من العلوم ، وهي معقدة بسبب بقاء وتعدد اللغات التي يعبر بها عالم الاثار .

٢

من البدء
حتى نهاية القرن الثامن عشر

كان علم الاثار وصفاً واقعاً قبل ان يصبح علماً . والالتفات نحو الماضي والرغبة الحارة في معرفة الحضارات المنقرضة ، والاهتمام بأشياء وأعمال فنية من العصور القديمة ، كل هذا يشكل الخطوة الاولى في غياب أية طريقة او اسلوب . وبهذا المعنى يمكن القول ان هوميروس هو أب علم الاثار ، وبدون الدخول في جدل لا نخرج منه — المسألة الهوميرية — فبالإمكان التأكد ان علم الاثار غير موجود بين مصادر التوسع الملحمي : ان بعض الاوصاف والتطبيقات العملية الموجودة في الالياذة والاوديسه تنقل المستمع الى خارج الزمن الحاضر ، الى قلب حضارة قدمها سبب سحرها . وفي الفصول الاولى من توسيديد *Thucydide* [1] ، حيث تاريخ الاغريق مرسوم منذ البدء ، توجد إشارة اركيولوجية موجزة (حول البحرية ، وهندسة البناء ، والملابس ، والامتعة المأتمية) . ولكن ابتداءً من القرن الرابع قبل المسيح على الخصوص ، وتحت تأثير عاطفة انسيكلوبيدية كان عالمها ومحركها الاول هو ارسطو ، تضاعفت الكتابات الاركيولوجية وتحقيقات السياح او جمع قطع متنوعة في غرفة . أما الوحيد بين هؤلاء

---

١ — اكبر مؤرخ يوناني (حوالي ٤٦٠ — ٣٩٥) قبل الميلاد .

السياح العلماء الذي بقيت لنا آثاره فهو بوزانياس ، وكان يعيش في القرن الثاني بعد المسيح في فترة كانت فيها بلاد الاغريق تستجوب الماضي آملة ان تجد فيه مآثر عظمتها وتجددها . وكان بوزانياس ، عقلاً وكاتباً ، أدنى من المتوسط ، ووصفه لليونان يُشعرنا بذلك ، وهـــذا الوصف ، كما ورد ، يمثل مجموعة قيمة من المعلومات عن بيلوبونيز ، وأتّيك ، وبيوتيا وفوسيد ، ولتقييم ما نحن مدينون به له يكفينا التفكير كم ان درس العصور القديمة يُشعر بعـــدم وجود مؤلف مماثل يتناول شمالي شبه الجزيرة ، والجزر ، وآسيا الصغرى . ولبوزانياس صفة اساسية ، مـــع كثير من الاخطاء : فهو نزيه لا يحاول ان يخدع ، ومن سوء الحظ فإنـــه لا يعرف صياغة شرح ويضيع في الاستطرادات التاريخية والاخلاقيـــة او الدينية ، حيث يظهر توافقية حمقاء تناقض تقوى بلوتارك الحية وتفكيره النشيط ، وهذا الذي ينتمي الى جيل سابق (ولد حوالي عام ٥٠ – ومات حوالي ١٤٠) يعالج اكثر من مرة مشاكل اركيولوجية وفنية . ويمكن ظهور اسمـاء سترابون ولوسيان وأتينيه ايضاً في هذه اللمحة السريعة .

وفي ايطاليـا ، كتب فيتروف *Vitruve* ، وهو مهندس معماري معاصر لحكم اوغسطس ، بحثاً « حول هندسة البناء » هو تقني قبل كل شيء ولكنه يقتضي الرجوع كثيراً الى المؤلفات الكلاسيكية . وبلين لانسيان الذي لاقى حتفه في ثورة بركان فيزوف (سنة ٩٧ بعد المسيح) ، طاف في كتابه « التاريخ الطبيعي » الميادين الاكثر تنوعاً من المعرفة وأشار الى عدد كبير من الفنانين والاثار الفنية (نحت ، رسم ، فنون صغيرة) ، وهو مدين بقسم كبير من علمه الاركيولوجي الى فارون الذي ضاعت مؤلفاته .

هـذه الاسماء القليلة لا تكفي لاعطاء فكرة عن الحالة الروحية التي تسيطر منذ النصف الثاني من القرن الرابع قبل المسيح ، في العالم الاغريقي ، ثم في العالم الاغريقي – الروماني . ان يونان القرن الخامس ، اليونان السابقة

لفتوحات فيليب وفوضى القرن الثالث ، يونان تيميستوكل ، وبركليس ، وألسيبياد ، وإيبامينونداس تظهر لرجال الاجيال اللاحقة كعصر رائع بلغت فيه جميع الفضائل العسكرية والمدنية أوجها ، والمنظر الذي يجعلنا نرى ان البارتينون وفيدياس قائمان على قمة الفن ليس امراً حديث العهد ، فالعالم القديم لم ينقطع عن التطلع بعينين مبهورتين نحو روائع القرن الخامس والقرن الرابع : فقد قلدها او نسخها ، بنوع ان قسماً كبيراً من أدب العصور القديمة مشبع بالأعجاب الاركيولوجي ، واهاجي « المنتخبات الاغريقية » تقدم امثلة كثيرة ، وشيشرون في « بروتوس » او في « فيرين Verrines » يبرهن عن ثقافة متينة كهاوٍ . وليس هناك أي عالم آثار اغريقي اكثر ولعاً من الامبراطور هادريان الذي لم يكن مسروراً لتجديد وتزيين المراكز الكبرى في الحياة الاغريقية ، فبنى في دارته في تيبور مدرسة ، وأكاديمية ، ورواقاً لحفظ الرسوم ، ومسرحاً اغريقياً ، وملعباً ، الخ . على غرار الابنية الاثرية التي زارها وأحبها : اول متاحف الهندسة المعمارية في التاريخ ! ومتحف للنحت ايضاً حيث تتراكم اعمال فنية استعيدت ابتداءً من عصر النهضة وتشتتت في المجموعات الاوروبية .

وإذا قمنا الآن بوثبة فوق القرون الوسطى ، فهذا لا يعني ان الفنانين وهواة الفن لم يشعروا حيال العصور القديمة الكلاسيكية إلا بالاحتقار والذعر أثناء تلك الفترة . صحيح ان حالة اوروبا وسياسة الكنيسة لم تكونا مناسبتين خلال قرون طويلة للقيام بأبحاث دائبة ونزيهة ولتمجيد آثار نشأت عن عبادة الاصنام الوثنية ، ولكن سيكون من الخطأ الظن ، كما حدث لفترة طويلة ، ان القطيعة كانت كاملة في الغرب ، وبمقدار ما ينفذ تاريخ الفن الى غوامض القرون المظلمة التي تفصل الغزوات البربرية عن النهضة الرومانية ، ثم القوطية ، يظهر ان إشعاع الفن القديم لم يكن قد انطفأ تماماً . ففي الشرق ، كما هو معلوم ، يوجد استمرار ملحوظ بالرغم من منع تكريم الايقونات والصور .

ونصل مع النهضة البحتة الى وصيد فترة اخـــذ فيها علم الآثار الكلاسيكي ينمو شيئاً فشيئاً ، وهنـا ملاحظة تمهيدية تفرض نفسها . فقــد قيل ويقال في اغلب الاحيان . « لا يوجد علم آثار بـــل يوجد علماء آثار » . وعلينا ان نرى الى أي حدٍ يكون هذا التأكيد مقبولاً للقرن التاسع عشر ، بينما علم الاثار – او عـلوم الآثار – تهدف الى ان تنحصر في علوم منسقة . ان هذا التأكيد صحيح كل الصحة فـيما يتعلق بعصور التكوين . ثم اننا نستحضر سلسلة من الشخصيات اكثر ممـــا نستحضر استمراراً علمياً .

لنشر اولاً بسرعة الى الخطيب الشعبي الروماني الكبير :

كولا دي ريانزو (١٣١٠ – ١٣٥٤) الذي كانت مطامعه الوطنية – إذ كان يريـــد توحيد ايطاليا – مستندة ، ان لم تكن مستوحاة ، من حبه للعصور اللاتينية القديمة ، والابنية ، والمنحوتات ، والمحفوظات . وسنجد بين نوابض علم الآثار في الازمنة شواغل من نفس النوع .

وسيرياك دانكون (١٣٩١ - ١٤٥٢) كان عالم آثار اكثر منه تاجراً ، وقـــد هيأت له الاعمال رحلات علمية ، فزار بشكل مشبع او عابر ، أثناء توقفه في الموانىء ، ايطاليا ، صقلية ، دلماسيا ، دلتا النيل ، جزر بحـــر إيجه ، القسطنطينية ، وفي مناسبتين او ثلاث طاف اليونان ، فزار البيلوبونيز وأثينا ، ودلفس . ولا شك في انه كانت تنقصه ثقافة مؤرخ الآداب القديمة الكاملة ، ولكن الملاحظات والرسوم التي وصلت الينا تشهد على رغبة في المعرفة واسعة جداً وخصوصاً في علم النقوش ، وقد فقدت ستة مجلدات لا تعوّض من الشروح التي كتبها وذلك في الحريق الذي اصاب مكتبة سفورزا في بيزارو عام ١٥١٤ .

وفي القرن السادس عشر فـــان الابحاث حول طوبوغرافية روما وعصورها القديمة قد تضاعفت ، ولكنها لم تتجاوز إطار علمٍ حكيمٍ عملي فقد كان علم الاثار الاكثر خصباً يمارس آنذاك في مشغل الفنانين ، وفي

ردهات العائلات الايطالية الكبرى : مجموعات من العاديات تنشأ وتنمو لتكون نواة عدة متاحف ايطالية ، والاثار القديمة تتشرب – كمواضيع وأنماط – قسماً كبيراً من الخلق الفني ، ويبقى ان يُصنع التاريخ من التأثير الذي تمارسه على كبار نحاتي ورسامي عصر النهضة تلك المجموعات الخاصة التي دخلوا حرمها (بعض الحالات الخاصة معروفة اكثر من غيرها : كحالة مانتينيا) [١] . وبشكل عام فإن جو عصر النهضة ، في الغرب كله ، ونمو النزعة الانسانية ، والإعجاب الشديد احياناً بالعصور القديمة ، كل هـذا ملائم تمام الملائمة لعلم الآثار الكلاسيكي . إلا انه لا يوجد في هذا الميدان شيء مشابه لما يحدث لعلم اللغات الذي عرف تقدماً مدهشاً . ويستحسن تقديم حساب عن سبب هذا التأخير : لماذا ظلّ علم الآثار وقتاً طويلاً حتى نشأ بينما ظلّ تقليد علم اللغات حياً منذ العصر الهليني وحمل في القرن السادس عشر ثماراً تستحق الاعتبار ، يجب ألا ننسى دور الكنيسة – مسكونية اولاً ، ثم لاتينية وأغريقية – التي حفظت تقليد الدراسات القديمة ، مهتمة بالآداب وليس بالفنون . وفضلاً عن ذلك يستشف سببان : الاول هو النظام الفكري : اكثرية النـاس تعلق من الاهمية على الكلام والأفكار اكثر مما تعلق على الاشكال الفنية ، ومن الطبيعي ان علم اللغة قد تقدم علم الآثار ؛ والثاني هو النظام المادي : ان تداول درس النصوص أسهل بكثير من تداول درس الآثار ، وسهولة الرحلات واتقـان النسخ الآلي (نقش ، صور شمسية) هما اصل كل التقدم الراهن لعلم الآثار . ولكن هذا لا يفسر كل شيء : فعلم اللغات ، في فرنسا على الاقل ، وخصوصاً علم اللغات الاغريقي ، قد عرف في القرن الثامن عشر تقهقراً واضحاً جداً ، بينما انتشر تذوّق العاديات بشكل ملحوظ . لماذا ؟ ربمـا كان ذلك لأن

---

١ – اندريا مانتينيا : رسام وحفار ايطالي ، ولد في بادو (١٤٣١ – ١٥٠٦) وهو احد باعثي النهضة الفنية الايطالية .

القرن الثامن عشر يعتز في ميدان الأفكار ، بالعصرنة ، ولأنه لا يرى في كتاب العصور القديمة ما يشوق اكثر من مجموعة معلومات للاستشهاد بها وكمدرسة للبيان ، وربما ايضاً لأن قضايا المواد والتقنية تكتسب اهمية جديدة مع الانسكلوبيديا . وقد احتُفظ للقرن التاسع عشر بترقية الابحاث المتعلقة بعلم الآثار وعلم اللغات وأن يشركها في جهد ليس متوازياً فقط ، بل مشتركاً ، بل وحيداً ، نحو معرفة اكثر عمقاً للعصور القديمة .

وطوال قرن او اكثر احتل الفرنسيون المركز الاول بلا ريب في درس العاديات الكلاسيكية . وسيكون من الظلم عدم الإشارة الى اعمال كأعمال الهولنديين غروتر (١٥٦٠ — ١٦٢٧) او جاكوب غرونوفيوس (١٦٤٥ - ١٧١٦) اللذين شرع احدهما بنشر جميع المدوّنات [١] القديمة (١٦٠٣) والاخر بإنشاء انسكلوبيديا حقيقية عن عصور الاغريق القديمة ، من أدب وفن ، الخ . (١٦٩٩ — ١٧٠٢) . ولكن رواد علم الآثار ، وجامعي المصنوعات القديمة قد ظهروا في فرنسا واهتموا بالمستند ، بالشيء دون ان يلقوا جانباً قواعد الاسلوب الحقيقي .

وأولهم تاريخياً هو البروفنسي نيقولا — كلود دي فابري سيد بيرسك (١٥٨٠ — ١٦٣٧) . كانت رغبته في المعرفة ونشاطه يخرجان عن المألوف وامتدت ابحاثه الى جميع فروع العلم تقريباً . وهو مستشار في برلمان إيكس ، وحقوقي ، ويهتم بالعلوم الطبيعية اهتمامه بعلم الآثار (لقد جلب الى فرنسا عدة نباتات وأثمار اجنبية وكذلك هررة أنغورا) ، وأرسل الى ايطاليا وهولندا وانكلترا . انه ثري ومضياف ، يمارس ضيافة كريمة ، ويراسل دنيا العلم كثيراً ، واهتمامه كعالم آثار يمتد الى الآثار من كل نوع من كل عصر ، ومن جميع الاحجام ، وهو على علاقات بالمراسلة ، مباشرة

١ — المقصود بها الكتابات المحفورة على الحجارة او الرخام .

أو غير مباشرة ، مع اليونان ، وآسيا الصغرى ، وقبرص ، وأفريقيا . وكان احد الأوائل في فرنسا الذين وجهوا اهتمامهم الى مصر وإلى الحبشة . ومع ان بيرسك لم يترك أي مؤلف هام ، فإنه اكثر من هاو . وتؤلف مراسلاته الضخمة وثيقة تصويرية عن الانسان وعن العصر (لقد حفظ لنا منها عشرة مجلدات كبيرة ، نشر منها سبعة فقط)[1] .

وهناك بعثتان لها صفة دبلوماسية ساعدتا على مدّ حقل الابحاث نحو اليونان والشرق ، وبالنتيجة الى ما وراء ايطاليا التي ظلت طويلاً تشكل حاجزاً بين الغرب والهيلينية . ففي عهد لويس الثالث عشر قام لويس ديشاي بارون دي كورمينان « برحلة الى الشرق بأمر الملك » ورواها ، والمركيز دي نوانتيل على الخصوص ، وهو جامع آثار مصرّ على خطأه ومتلاف ، أرسل عام ١٦٧٠ الى السلطان فمدد إقامته في القسطنطينية حاملاً لقب سفير ، الى ان غطته الديون واستدعاه لويس الرابع عشر (١٦٧٨) ؛ أما لقبه المجيد الأكيد حيال علماء الآثار فقد وطده فنان فلمنكي من حاشيته كان قد رسم منحوتات البارتنون عام ١٦٧٤ ، ولم يبقَ سوى قسم من الرسوم التمهيدية *Croquis* ، وكانت قيمتها من الكبر بحيث ان الفينيسي موروزيني قذف الحصن التركي في الاكروبول بعد عدة سنوات بالقنابل وخرّب القسم الاوسط من البارتنون عام ١٦٨٧ بسبب تفجير مخزن للبارود . وفي ربيع عام ١٦٨٨ حاول موروزيني نفسه إسقاط منحوتات المثلث الموجودة في أعلى مقدم البناء من ناحية الغرب ، فسبب سقوط وتفتيت القسم الاكبر من هذه المجموعة . ولنذكر من ناحية اخرى ان يسوعيين وكبوشيين فرنسيين كانوا مقيمين في أثينا فوضعوا مخططاً للمدينة .

والليوني **جان سبون** (١٦٤٧ — ١٦٨٥) كان طبيباً بالمهنة وجامع آثار

---

١ — لقد اشترى وكيل لبيرسك في ازمير نصاً شهيراً من الكتابات الاغريقية (رخامة باروس) ولكن السلطات التركية سجنته ولم يتسع له الوقت لإرسال هذه الرخامة الى زبونه .

بالهواية وقد صرح مازحاً « ليست العاديات سوى لعابي بالورق » . وهـــذا البروتستانتي من اصل المـاني ذو شخصية تختلف تمامـاً عن شخصية بيرسك ، ولكنه مثله ، لديه كل وساوس عالم الآثار الحقيقي . وقـــد طرد من فرنسا بسبب إلغاء امر نانت [1] *L'Edit de Nantes* فذهب يموت ببؤس في سويسرا . وقد نشر آثاراً هامة : فضلاً عن دراسة لعاديات ليون ، فقـد استخرج من رحلته الكبرى الى الشرق ، حيث كان يرافقه الانـكليزي ويلر ، كتاباً معتبراً هو « رحلة الى ايطاليا ودلماسيا واليونان والشرق » وتُرجم هذا الكتاب ، او اختير منه ، الى الانـكليزية والالمانية والهولندية والايطالية . وفي كتاب آخر من مؤلفاته بعنوان « مزيج من عـــلوم الآثار » (ليون ١٦٨٩ – ١٧١٣) اقترح سبون ، فـيما يتعلق بالدراسات حول العصور القديمـة ، ان يقسمها الى ثمانية اقسام مما يؤكد اتساع نظراته .

وبرنار دي مونفوكون (١٦٥٥ – ١٧٤١) ، وهو نبيل وراهب بندكتي ، نشر عدداً كبيراً من المؤلفات العلمية ، ومن اعظمها كتاب « العصور القديمـة مشروحة وممثلة بصور » وهو خمسة عشر مجـلداً : صدرت الطبعة الاولى من ١٨٠٠ نسخة في عشرة مجلدات (١٧١٩) ونفدت بمدة شهرين ! وتُرجمت مختارات منه الى الالمانية ونشرت عام ١٧٥٧. وهو مؤلف غير عادي بالأبعاد وبغزارة العلم ، ولأن الجاهليتين *Antiquite* الاغريقية والرومانية ممثلتان فيه معاً ، لأول مرة ، في إطار مشترك .

وبول لوكاس (١٦٦٤ - ١٧٣٧) ، جامع آثار للويس الرابع عشر ،

---

١ – امر نانت : امر اصدره هنري الرابع عام ١٥٩٨ لصالح البروتستانت يسمح لهم فيـه بمارسة طقوس مذهبهم. ولكن هذه الحقوق ألغيت واحداً بعد واحد يوم كان لويس الرابع عشر ناصراً . وألغى الملك نفسـه هذا الأمر عام ١٦٨٥ وأدى هـذا الإلغاء الى هجرة عدد كبير من لبروتستانت .

طاف شرق البحر المتوسط عـدة مرات (اليونان ، آسيا الصغرى ، سوريا ، مصر) حيث حمل من هناك ، عدا النقود والمحفوظات ، ثلاث حكايات كبيرة عن الرحلة .

لنخرق النظام التاريخي محتفظين بأشهر عالمي آثار في القرن الثامن عشر ، هما كايلوس وونكلمان ، ولنذكر هنا الأب برتلمي والكونت دي شوازيل — غوفييه . فالأب عالم كبير باللغات القديمة (كلاسيكية ، عبرانية) ، وعربية ، الخ. فزار ايطاليا (وخصوصاً الخرائب المجاورة لنابولي : هركولانوم ، بومبيي ، باستوم) ، حيث غنم عاديات عديدة « لغرفة المداليات » التي كان حافظاً لها. وأكتسب الشهرة بكتابه « رحلة أناكارسيس الشاب » ، وهو مؤلف أنيق وعلمي ذو فائدة كبيرة ويبحث في جميع مظاهر الحضارة الاغريقية القديمة ، ولكنه نشر ايضاً ابحاثـاً علمية واسعة وطرق مواضيع جديـدة وعسيرة كأبجدية ولغـة تدمر ، او الآثار الفينيقية . أمـا الكونت دي شوازيل — غوفييه (١٧٥٢ — ١٨١٧) ، فهـو دبلوماسي وجامع آثـار وسفير في القسطنطينية ، وقـد سار على غرار نوانتيل ، وكتب « رحـلة تصويرية الى اليونان » ، وباشر الحفريات الاولى حول موضع طرواده ، وترك مجموعـة غنمها متحف اللوفر .

ولنشر بسرعة ، وبسرعة كبيرة ، الى بعض المؤلفات الانـكليزية الكبيرة ، وذلـك لننصفها : « عاديات أثينا » تأليف ستيوارت وريفيت (ظهر اول جزء عام ١٧٦٢ والأخير عـام ١٨١٦) ، و « عاديات أيونيا » عام ١٧٦٩ تأليف شندلر ، و « خرائب تدمر » (١٧٥٣) ، و « خرائب بعلبك » عام ١٧٥٧ تأليف ر. وود ، وهـذه المؤلفات نتيجة رحلات طويـلة وصعبة . وكتب كهذه تفتح الطريق الى العلم الحديث . وكان دور جمعية ديليتانتي [1] *Dilettanti* المؤسسة في لندن عام ١٧٣٣ دوراً رئيسياً في هذا التقدم لعلم الآثار

---

١ — كلمة ايطالية معناها : الهواة .

الكلاسيكي المتعلق بالشرق الادنى في انكلترا . واستطاع غوته ان يكتب : « ما من امة اوروبية ، باستثناء الانكليز ، تملك اليوم هذا الحماس لخرائب العصور القديمة ، الحماس الذي لا يوفر النفقات ولا الجهد ليعيد لهذه الخرائب تألقها بقدر الإمكان » .

واسم **بيرانيزي** الكبير (١٧٠٧ - ١٧٧٨) لن يغيب عن هذه الصفحات فمن بين جميع الفنانين الذين ساعدوا على نشر تذوق الاشياء القديمة في مجرى القرن الثامن عشر لم يصل احد الى جمهور كبير متنوع كما وصل هذا الحفار العبقري ، لقد اعطى الخرائب والآثار الرومانية تأويلاً هو خيالي احياناً ولكنه عظيم دائماً .

وهناك حادث اركيولوجي ذو هدف كبير في القرن الثامن عشر ، هو التنقيب الخفي ثم المنسّق في هركولانوم وبومبيي،المدينتين اللتين خربتا بسبب ثورة بركان فيزوف عام ٧٩ بعد المسيح . ففي هركولانوم ، حيث الآثار مدفونة تحت طبقة بركانية تبلغ سماكتها ١٢ و٣٠ متراً ، سارت الاعمال اولاً (١٧١٩) بإدارة النمساوي عمانوئيل دي لورين ، امير إلبوف ، ثم بإدارة شارل الثالث دي بوربون ، ملك نابولي (ابتداء من عام ١٧٣٨) ، وكانت أهم المكتشفات هي المسرح والدارة الواقعة في ضواحي المدينة والتي تشتمل على مجموعة تستحق الاعجاب من البرونز ، ومكتبة من ورق البردي . وفي بومبيي ، حيث طبقة الرماد التي تغطي الخرائب كانت رقيقة ، فقد كانت الاشغال اكثر سهولة ، وبدأت عام ١٧٤٨ ولم تتقدم بنشاط منتظم . ومن حسن الحظ ان القرن التاسع عشر طبّق ، هنا كما في هركولانوم ، طريقة في الحفر تحفظ حالة الاشياء القديمة على خير حال .

و **ج. ب. سيرو داجانكور** (١٧٣٠ - ١٨١٤) يستحق تنويهاً خاصاً . فبعد ان كدس هذا الخبير المالي ثروة عظيمة وساح في انكلترا وهولندا وألمانيا ، استقر في روما عام ١٧٧٩ ، وتعلق بالعصور، المهملة آنذاك ، والتي

تلي خراب الامبراطورية الرومانية ، ولم يسره القيام بأبحاث تتعلق بالمحفوظات فدرس الأبنية الأثرية وباشر ببعض الحفريات ، وكتابه « تاريخ الفن بواسطة الأبنية الأثرية منذ القرن الرابع حتى القرن السادس عشر » (ظهر قسم منه بعد موته ، ١٨٠٩ – ١٨٢٣) ، مع ٣٢٥ لوحة ، يسجل ولادة علم الآثار المتعلق بالبحر المتوسط .

ومن الطبيعي ان تخصص نهاية هذا الفصل لكايلوس وونكلمان . ان جميع من تكلموا عن واحد من الاثنين ذكروا الآخر ورسموا ، بصراحة تكثر او تقل ، خطاً متوازياً بين هذين الرجلين اللذين يختلف اصلها وعملها ولكن تأثيرهما متشابه . فالكونت دي كايلوس (١٦٩٢ – ١٧٦٥) كان في بادىء الأمر ضابطاً فاستقال ، وساح في ايطاليا ، وعاد الى فرنسا الى جانب امه ، ثم ذهب بعد ذلك كملحق في سفارة فرنسا في القسطنطينية ، فزار إفيز *Ephèse*[1] «ولا تروادة»، ولكنه عاد الى باريس في بدء عام ١٧١٧ دون ان يرى اليونان . وبعد بضع سنوات طاف هولندا وأنكلترا ، حيث اهتم بالاثار وبالأروقة العامة والخاصة ، ولن يسافر اكثر من ذلك . ويمتد نشاط كايلوس الى ميادين متعددة ، فككاتب ، ترك مؤلفات « مضحكة »، وكناقد فني ، خالط واتو وكتب عن حياة عدة فنانين (مينيار ، ليموان ، بوشاردون ، واتو) ، وكحفار ، فآثاره عظيمة بعددها وبتنوع المواضيع المعالجة ، ثم انه عالم آثار: و « مجموعة العاديات المصرية، والأتروسكية، واليونانية والغالية » هو مؤلفه الرئيسي، ولكن قد سبقته او رافقته عدة مذكرات (عن بورسلين مصر او عن رسوم القدماء النظرية، والرسم بالدهان الممزوج بالشمع ، الخ .) وقد طبع كثير منها في « مذكرات أكاديمية المدوّنات » . وكان كايلوس عضواً فيها وكذلك في الاكاديمية الملكية للرسم والنحت حيث قام بعمل جبار طوال عدة سنوات .

---

١ – مدينة على بحر ايجه وفيها معبد ديانا احد عجائب الدنيا السبع . وورد اسمها افسس في رسائل بولس الرسول .

أما ونكمان (١٧١٧ — ١٧٦٨) فغامض الولادة ، لقد ولد في براندبورغ وبعد دراسة صعبة اصبح مربياً ، ومعلماً في مدرسة ، وحافظاً خزانة كتب في ساكس . وقد اجتذبته الاركيولوجيا القديمة ، فطلب من السفير البابوي الذهاب الى درسد وذهب الى روما عام ١٧٥٥ ، فاعتنق الكثلكة (عن منفعة لا عن اقتناع) ، وأصبح اكليركياً . وقد وطد امره في ايطاليا حيث كان الكاردينال ألكسندر ألباني ظهيراً له ، وأصبح رئيساً للآثار وخازناً لمكتبة الفاتيكان . وقد قتله مغامر نال حظوة لديه ، عام ١٧٦٨ ، حيث كان في اوج قوته . وترك ونكلمان مؤلفين كبيرين ترجما الى الفرنسية : « تاريخ الفن عند الأقدمين » وقد كتبه بالألمانية ، و « آثار قديمة غير منشورة » وكتبه باللاتينية .

هذان هما الرجلان اللذان ساعدا اكثر من غيرهما ، بنشاطهما وكتاباتهما ، على تقدم علم الآثار الكلاسيكي في القرن الثامن عشر . والواقع ان اسم ونكلمان هو اكثر شهرة . ويوجد لهذا الفرق أسباب ثانوية (كان لكايلوس أعداء عديدون ، وأثيرت حوله حملة مؤلفة من نصف صمت ونصف ازدراء . أما ونكلمان فقد درسه مواطنوه وشهروه طوال قرن ، وسيرته التي كتبها جوستي عام ١٨٦٨ هي مؤلف ذو قيمة ، اصبح كلاسيكياً وطبع ثلاث مرات ، الخ .) وأسباب أخرى اكثر عمقاً . فكايلوس لم يزر سوى ايطاليا أما ونكلمان فقد عاش في وسط آثار روما وكتب هو نفسه : « لا يمكن ان ننكر على كايلوس الفضل في انه اول من حدد ذوق الشعوب القديمة ، ولكن متابعة هذا المشروع كانت صعبة في باريس » . ان كايلوس يهتم بالأشياء الصغيرة وبالتقنية اكثر من اهتمامه بالاعمال الفنية الكبيرة . وينقصه الشغف ، بينما يفيض ونكلمان حماسة . ان لأحدهما الف شكل من النشاط ، أما الآخر فلا يهتم إلا بالعصور القديمة . وكايلوس يصدر عن تحليل ، عن لمسات واضحة ، وونكلمان يسرع في التنسيق . والصحيح أننا

نجد في آثار كايلوس كثيراً من الدلالات المبعثرة التي مهدت لنمو ونكلمان . ويجب ألا ننسى ان هذين الرجلين لم يكونا منعزلين ، وأن كلاً منهما قد انخرط في محيط من العلماء الاعلام في باريس وروما ، ومن الصعب الجزم الى أي حدٍ استعملا وشرحا حركة افكار أحدثت فيها هزة تلك الرحلات العديدة الى الشرق وكذلك حفريات هركولانوم وبومبيي . ومع ذلك فلنقل ان فضل ونكلمان الخاص ناشىء عن انـه صاغ بقوة تلك الفكرة القائلة ان هناك تاريخاً للفن ، أي ان الفن يولد ، ويزهر ، ويفنى مع الحضارات التي ينمو في قلبها .

والقارىء الذي يطوف اليوم بمؤلفـات كايلوس او ونكلمان يصاب بالدهشة من كثرة الاخطاء في العمل وفي الاسلوب . لقد ربحنا بالعلوم منذ قرنين ، وأتكلم بتواضع عن افضل علماء الآثار في الوقت الحاضر . وحين أجرت شركة هس – كاسيل للعاديات مسابقة لتقريظ ونكلمان بالموضوع التالي : « النقطة التي وجد فيها علم العاديات وفي أية نقطة تركه » خصصت الجائزة لهاين Heyne ، الاستاذ في جامعة غوتنجن . ويتضمن مؤلفه الصغير نقداً عنيفاً جداً : « اذا كان ونكلمان قـد أشعل في وسط روما مشعل الدرس السليم لآثار العصور القديمة » فقد بـدا في نهاية حياته « كنوع من العرّاف او النبي بحيث ان مخيلته المحتدمة لا تسمح له دائماً باستعمال التفكير والحكم السليم » . والسطور التي قارن بهـا هاين ، وهو الاول في سلسلة طويلة ، بين كايلوس وونكلمان مليئة بالحس السليم : « في ذلك الوقت فإن عالماً خالداً آخر ، من جانب الألب ، عالج علم الآثار القديمة بطريقة مماثلة . كان لدى الكونت كايلوس معرفة عميقة وواسعة بالفنون التي كان يعالجها ، فقد كان رساماً وحفاراً جيداً ، وهي مواهب اضفت على جميع آثاره مزية عجيبة . وونكلمان الذي لم يكن موهوباً بهـذه الصفات ، كدس من ناحية اخرى علوماً كلاسيكية واسعة لم يكن يملكها الكونت كايلوس ؛

وبينما كان هذا يهتم بالاشياء الصغيرة التي اعطانا عنها شروحاً ممتازة ، فقد كان امام ناظري ونكلمان في روما دائماً اعظم الاثار الفنية عند الاقدمين ، ومع ذلك يوضح هاين ان « القسم التاريخي من (تاريخ الفن) يخطىء في تاريخ الحوادث من كل نوع » .

في عام ١٨٨٠ صرح عالم آثار الماني آخر ، هو ب. ستارك ، « ان هناك شبه قرابة بين مؤلفات كايلوس وتيار العلم الحالي اكثر من حماسة ونكلمان الطموحة ونظراته العبقرية » . وقد قيل منذ أمد قريب انه يجب القول لصالح ونكلمان « انه لم يقفل طريق ملاحظة المؤلفات نفسها بواسطة نظرياته الجمالية » (ف. كوب) . وهكذا يختلط المديح والذم تحت قلم مؤرخي علم الآثار . وضعف ونكلمان مزدوج : فقد ظن ، من ناحية ، ان باستطاعته الاحاطة بجميع العصور القديمة المصرية والاغريقية والاتروسكية والايطالية ، ومن ناحية اخرى فقد اجتذبته جميع انواع الاعتبارات الجغرافية والفلسفية والاخلاقية الكثيرة المغامرة . وكانت النتيجة بائسة ، ونحن نتكلم علمياً . ولكن تأثير العمل الفني لا يقاس دائماً بقيمته الذاتية ، وونكلمان قرىء ، ونوقش ، ونال الإعجاب ، ولم يسجل مرحلة ولا منعطفاً. وبالمستطاع القول تقريباً انه لم يأت بشيء ايجابي ، إلا ان همته ، والاندفاعة الطموحة لمخيلته ، كانتا خصبتين . وحين قام غوتي برحلة الى ايطاليا فإنه رأى العالم القديم من خلال ونكلمان . وكان هناك توافق رائع بين عالم الآثار الالماني ومبتغيات عصره . وكان الغرب بكامله آنذاك يلتفت نحو روما ونحو البحر المتوسط . وهناك كاتب سيرة وصديق لونكلمان روى ان عالم الاثار الكبير عزم عام ١٧٦٨ على القيام برحلة في وطنه ، وحين اجتاز بالعربة جبال الألب في التيرول هتف : « انظر يا صديقي ، يا له من منظر هائل ! . يالها من ارتفاعات مخيفة » ! وبعد وقت قليل قال ، وكان قد اصبح على الارض الالمانية : « يا لها من هندسة معمارية فقيرة ! انظر الى

هذه السطوح كيف تنتهي على شكل قرن » ! ولم ينقطع عـن الترديد : « لنعد الى روما » ، ولكي ينتهي فإنه لم يتجاوز مونيخ وفيينا ، وأسرع بالعودة . وتدل الحكاية دون شك ان ونكلمان كان مصاباً بضعف الاعصاب بسبب اعتلال النخاع الشوكي ، ولكن لها قيمتها الرمزية ايضاً . ان اوروبا العالمة ، الفنية ، الادبية تسرع نحو البحر المتوسط ، نحو مصدر كل حضارة ، ويبدو ان الفرنسيين في هذه الحركة الكبيرة كانوا أقل شغفاً من الشعوب الجرمانية . وبهذا المعنى فإن هدف الثنائي كايلوس - ونكلمان ، الذي لخصه بعض المؤرخين ، ربما يتخطى عالمي الآثار .

٣ من غزوة مصر الى ايامنا

النظريات الجمالية والفلسفية تهم أقل مما تهم الوثائق . ومـا يشكل مرحلة في تاريخ علـم الاثار في القرن الثامن عشر ليس طرق ونكلمان وليسنغ بقدر ما هي مكتشفات هركولانوم وبومبي ، وكذلك الرحلات الى الشرق الادني . ففي عطفة القرن سار بونابرت الى مصر بغزوة عسكرية : وكان مصحوباً بموكب من العلماء الذين نشروا بسرعـة مشكورة كتاب « وصف مصر » الذي يستحق الإعجاب . ومن ناحية اخرى فكك اللورد إلجن اكبر قسم من منحوتات البارتنون ونقلها الى المتحف البريطاني حيث عرضت عام ١٨١٦ . هذان هما الحادثان اللذان يمكن القول انهما يسجلان ولادة علـم جديد للآثار اذا صرفنا النظر عن الكلام عن التطور البطيء المستمر منذ ان وجد الناس الذين يسعون لفهم الماضي .

وبواسطة المثلثات والأفاريز الموجودة في أعلى البارتنون وجـد علماء الغرب وفنانوه انفسهم للمرة الاولى على اتصال مباشر بمجموعـة اصلية وبتحف من الفن الاغريقي ، واكتشفوا اخيراً النسخة الاصلية التي لم يكونوا يعرفون منها سوى الانعكاسات الاكثر او الاقـل سواءاً . وفجأة انهـار

تعريف ونكلمان الشهير حول « البساطة النبيلة والعظمة الهادئة » للفن الاغريقي ، فقد تكشف هذا التعريف ، الذي ربما كان صالحاً لتعريف كلاسيكية اكاديمية ، انه غير متساوٍ مع عظمة فيدياس الحقيقي والحياة الراعشة التي تحيي آلهة البارتنون ورجاله ، ان جميع البطاقات التي تحمل العناوين *Les etiquettes* يجب ان تصاغ من جديد ، والصيغ تسترد ، والنظريات تنقّح ، وربما لم ينتبه علماء الاثار حالاً ولكن النور الحار المنبعث من الرخام المنقول تحت سماء لندن اخذ شيئاً فشيئاً يبدد الكلاسيكية المبهرجة والاسهاب الجمالي . ومن ناحية اخرى فان كدسة اللوائح الوثائقية التي أعدتها ونشرتها غزوة مصر وصفت دنيا العلم تجاه حضارة مستقلة تمام الاستقلال عن الحضارة الاغريقية أثناء القسم الاول من مجراها ، والحق ، انه لا يمكن إصدار الحكم الصالح إلا بواسطة المقارنة . ورغم الجهود التي تستحق الثناء والتقدم في مختلف الاتجاهات ، فقد ظلّ علم الاثار اغريقياً — رومانياً بشكل اساسي حتى القرن التاسع عشر ، وكل توسع على صعيد علم الاثار لا يمثل كسباً جديداً فقط ، ولكنه يغير منظر الشذرات المكتسبة حتى الان . وارتياد مصر في فجر القرن الماضي كشف عن عالم يكاد لا يكون معروفاً .

وفي العرض ، او بالأحرى في التعداد الذي سيتبع ، سنراعي الترتيب التاريخي ، ولو انه دون ضبط كلي . اني لا اخفي محاذيره . وبالإمكان الميل الى تفضيل مخطط آخر وتوزيع هذه المراجعة القصيرة على قطاعات بقدر عدد علوم الاثار ، وبطريقة تتبع تقدم كل منها ، وقد لوحظ عن حق ان اراضي جديدة قد اكتسحت بواسطة علم الاثار في مجرى القرن التاسع عشر وان المخطط المتبع في الفصل السابق قد تأكد انه غير قابل للتطبيق العملي امام تعقد الابحاث وتعددها . ولن يكون لهذه الملاحظات مرمى إلا اذا صممنا على صنع التاريخ من علوم الاثار المختلفة (ويلزم

لذلك اكثر من مكان) ، ولحن نحاول فقط ان نرسم النشاط المدهش للقرن التاسع عشر والعشريات الاولى من القرن العشرين في اتساعه الجديد ولكن ليس مفصلاً .

إلا ان الاكتشاف هو الذي يستوقف نظرنا بشكل خاص . فهو يقلب ويخرب الابحاث النظرية التي هي هشة اكثر منها مغرية . ما قيمة واحد مثل كروزر (١٧٧١ — ١٨٥٨) في تقدم علم الابحاث ؟ ومع ذلك « فرمزه » كان مشهوراً . وهو شاهد على فراغ الصبر الذي يفسر العقل البشري بموجبه وينسق ؛ انه لا يمثل تقدماً ايجابياً ، « والخطأ الرئيسي في رمز كروزر يعود الى انه سبّب ردّ فعل طويل ، عقلاني وواقعي ، وأنكر بعد ذلك ، ولوقت طويـل ، دور الدين الملهم في الفن الاغريقي » . (ش. بيكار) . وسيتوضح مع النصف الاول من القرن التاسع عشر ذلك الميل الى الابتداع وصياغة الانظمة ، والذي يظهر عند ونكلمان . وغالباً ما يقال ان دوراً المانياً في علـم الاثار يعقب دوراً انكليزيـاً — فرنسياً ، والصيغة الكثيرة البساطة لتغطية جميع الوقائـع هي صالحة اجمـالاً . وقيل ايضاً ان دور علماء المصنوعات القديمـة يعقبه دور علماء الاثار ، مـع الفرق ان الهواة يتركون مكانـاً للأساتذة . فما هو عالم المصنوعات القديمة *Antiquaire* ؟ لقـد وضع له ليتريه تعريفاً سنة ١٨٧٦ : « هو الذي يمكف على درس العصور القديمة ، شارحاً المداليات والكتابات المنقوشة ، واستعمال وشكل الآنية ، والأدوات القديمة ، مرمماً المخطوطات ، وباحثاً عـن اضواء اخرى يمكن ان تلقي نوراً على تاريخ وعادات الأزمنة الغابرة » . ويجب الإضافة ان علماء المصنوعات القديمة كانوا قبل الثورة وظلوا في القرن التاسع من الهواة ، من عرض الناس ، من جامعي الاشياء المتجانسة الذين تمثـل لهم دراسة العاديات ألهية ذوق سليم . وهـذا المظهر يثير الدهشة عند واحد كبيرسك او كايلوس . وقد رأينا ان الجمعيات الانكليزية التي عملت كثيراً

في سبيل علم الاثار قد اختارت اسم « جمعية ديليتانتي » (١٧٣٣) . وقد انتقل علم الاثار ، مع القرن التاسع عشر ونمو الجامعات ، الى ايدي الاساتذة ، الى ايدي المحترفين . والفوائد واضحة ، ولكن كان يلزم اربعة او خمسة اجيال بعد ونكلمان قبل استخلاص وفرض طريقة حكيمة حتى لا يكون هناك حيرة في النظريات والطرائق .

وامتد علم الاثار وتنظم في نفس الوقت الذي تغيرت فيه الايدي ، ولم يعد كشيء للأفراد بل اصبح لهيئات منظمة (اكاديميات ، معاهد ، جامعات ، الخ) ، تابعة للدولة ، وحدثت منافسة مثمرة ، وارتفع عدد علماء الاثار ، والحفريات ، والرحلات ، والمنشورات بنوع انه اصبح من المستحيل ذكر اهمها . وان نحاول في الصفحات التي تلي ان نقرر اختياراً يرتكز على سلسلة مراتب مستحيلة وغير عادلة ، إننا نريد ببساطة ، وبواسطة ذكر بعض الاسماء والاعمال ، اعطاء فكرة عن الاتساع المتزايد دائماً للعمل المنجز .

وتظل روما مركزاً هاماً . وتظل لوقت طويل مركزاً كبيراً للدراسات الأثرية . فإنيو كيرينو فيسكونتي (١٧٥١ — ١٨١٨) ، وهو روماني ثم فرنسي ، ابن صديق لونكلمان ، وأب مهندس معماري فرنسي ، هو ذو تكوين روماني ، وكتابه « علم الصور والايقونات القديمة » (باريس ١٨٠٨) كتاب هام . وتأسست في روما عام ١٨٢٣ « جمعية الشماليين » (١) المؤلفة من علماء آثار المان ، وفي عام ١٨٢٩ تحولت بدخول الايطاليين الى « معهد المراسلات الاركيولوجية » الذي سيصبح في النصف الثاني من القرن منظمة المانية بحتة تابعة للمعهد الاركيولوجي في برلين . أما ما يميز القرن التاسع عشر بالنسبة للقرون السابقة ، هو ان روما لم تمد المركز الوحيد للبحث . فقد اكتشف البحر المتوسط والشرق فيما وراء روما وايطاليا . وجاءت

---

١ — Hyperboréens : والكلمة تعني البحار والشعوب والبلدان الموجودة في الشمال .

ظروف سياسية تساعد على ذلك : تجزئة الامبراطورية التركية ، والفتوحات الاوروبية في افريقيا ، الخ . وكان أ. جرهارد (١٧٩٥ – ١٨٦٧) هو اول من اثبت ان الانيـــة المسماة اتروسكية (لا يزال يوجد مخزن لهـا في باريس يدعى « الى الإناء الاتروسكي » وهو البـاقي حياً من مرحلة منقرضة من علم السيراميك) كانت بالحقيقة آنية اغريقية ، حملت من اليونان . ويمكن ان نرى في هذا الاكتشاف رمزاً لتخلية (رفع اليد) ستعيد الى الفن الهليني تدريجياً سماه الحقيقية غير المعترف بهـا حتى الان او التي نشعر بوجودها فقط من خلال المتاحف الايطالية .

ومنــذ السنوات الاولى من القرن اكتشفت ودرست سلسلتان هامتان من المنحوتات الاغريقية . وكان في أثينا آنذاك فريق من العلماء بينهم القنصل الفرنسي فوفيل[1] *Fauvel* وكان نشيطاً بشكل خاص (ان اللوفر مدين له بواحدة من اجمل صفائح افريز البارتنون) . وبعضهم ، وخصوصاً الانكليزي كوكريل ، والالماني هالرفون هالرستاين والبارون الروسي فون ستاكلبرغ ، اداروا الحفريات في معبد ايجين (١٨١١) ، حيث المنحوتات المرممة في روما بواسطة النحات توروالدسن اخذها فيما بعد لويس الاول ملك بافـــاريا ، وفي معبد باسي *Bassaé* بالقرب من فيغالي (١٨١٢) حيث انتقلت المنحوتات الى المتحف البريطاني ، وبعـد بضع سنوات (١٨٢٩) فإن بعثة أثرية فرنسية ملحقة بالجيوش الغازية – كما في مصر – تابعت في بيلوبونيز رحلة مثمرة من الارتياد ، وأظهرت للنور قطعاً هامة (هي اليوم في متحف اللوفر) من الزخارف المنحوتة في معبد اولمبيا ونشرت نتائج اشغالها في كتاب « غزوة موريه العلمية » . ان كل ما في (فيغالي) تقريباً ، والقسم الاكبر من (ايجـــين والبارتنون) ، وبعض القطع من (اولمبيا) ،

١ – لقد حل شاتوبريان في أثينا ضيفاً على فوفيل . انظر «حكاية رحلة من باريس الى القدس» التي تنتمي الى تاريخ الآثار الصغير وتنتمي في نفس الوقت الى الادب .

والمجموعات التشكيلية الاربع وهي أهم ما قدمت لنا اليونان (باستثناء دلفس) ، قد انتقلت الى الغرب . واكتساب فرنسا لتمثال فينوس دي ميلو ليس سوى حادث عرضي نذكره اتفاقاً لأنه كآخر نار لنشاط بعثاتنا الدبلوماسية الذي يستحق الاعتبار في القرنين السابع عشر والثامن عشر . ففي عام ١٨٢١ اخذ الفيكونت دي مرسيلوس ، السكرتير ، يفاوض في ميلو ، بناء على تعليمات رئيسه المركيز دي ريفيير ، السفير في القسطنطينية اشراء التمثال الشهير . وقد هتف بالطريقة التي كانت تناسب آنذاك : « أوه فينوس ، فتنة عيني وذكرياتي ، بعد ان نامت اكثر من الف سنة تحت المواسم الجديبة والأعشاب البرية ، استيقظت على صوتي » .

واليونان الآن ، وقد تحررت من السيطرة التركية ، تسرع نحو ماضيها . وقد اخذ العلماء يلعبون دوراً رئيسياً في الاسراع نحو الوثائق الأثرية . وتأسست في أثينا عام ١٨٤٦ « المدرسة الفرنسية لعلم الاثار » عميدة المعاهد التي أنشأتها منذ ذلك الوقت المانيا وانكلترا وأميركا والنمسا وايطاليا والتي اصبحت ، بالمؤهلات والوسائل المختلفة ، اجهزة ابحاث ورحلات وتنقيبات . ولكن منذ الربع الثاني من القرن التاسع عشر اصبح السائحون العلماء الذين يرتادون اليونان كثيرين . وأحد مشاهيرهم بالتأكيد هو كارل – اوتفريد مولر (١٧٩٧ – ١٨٤٠) ، من بريڠ ، وقد مات (بحمّى اصيب بها في دلفس) قبل ان يعطي طاقته كلها ، ومولر من الرجال القلائل الذين استطاعوا الإحاطة بعدة علوم قديمة ، كالتاريخ ، وعلم اللغات ، وعلم الاثار . وقد كان تلميذاً لأوغست بولا (١٧٨٥ – ١٨٦٧) ، الاستاذ في جامعة برلين والذي يظل اسمه مرتبطاً بعمل جبار « مادة المدونات الاغريقية » (نشر ابتداء من عام ١٨٢٥) . وهناك اسماء متنوعة تستحق الاشارة اليها في لمحة مهما كانت سريعة ، هي الالمانيون تيرخ *Thiersch* ولودفيغ روس (١٨٠٦ – ١٨٥٩ ، مدير الاثار واستاذ في جامعة أثينا) ، وأولريخ ،

والانكليزي ليك الذي تتناول اعماله بشكل خاص جغرافية اليونان وطوبواغرافية أثينا ، والفرنسي لوبا (١٧٩٤ — ١٨٦٠) ، « رحلة أثرية الى اليونان وآسيا الصغرى ، ١٨٤٧ وما يليها » ، الخ . ويجب الإضافة ان جميع علماء الاثار لم يكونوا سائحين ، وأحدهم ، وهو افضلهم ، جان . انطوان ليترون (١٧٨٧ — ١٨٤٨) لذي كان على الخصوص عالماً بالكتابات وعالماً بالمسكوكات القديمة ، لم يزر ابداً اليونان والشرق وهما موضوع افضل مؤلفاته . وهـ. برون الذي لم يكن منقباً ولا رائداً ، يختصر في كتابه « تاريخ الفنانين اليونانيين » (١٨٥٢ بالالمانية) حالة المعلومات المكتسبة ويشير الى الانفصال بين الديليتانية (التذوق الشديد للفن) ، والرومنطيقية العالمة وعلوم الجمال التي هي غامضة ومموهة معاً : وكتابه « دفاع وتمجيد ، جديدان لأركيولوجيا متميزة عن اركيولوجية علماء المصنوعات القديمة ، ويهدف بقوة تكهن رائعة ، منذ ذلك الوقت ، ليس الى إقرار تصنيف للتماثيل الأثرية فقط ، بل الى اصلاح شخصية المعلمين الكبار » . (ش. بيكار) .

واتساع ابحاث علم الاثار قد تتابعت في الوقت نفسه على ايقاع متسارع منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر . وقد قيل ان ولادة علم الاثار المصرية *Egyptologie* يعود تاريخها الى ١٤ ايلول ١٨٢٢ ، أي الى اليوم الذي استعمل فيه جان فرنسوا شامبوليون اعمال المهدين السابقين امثال الفرنسي سيلفستردي ساسي ، والسويدي اكيربلاد ، والانكليزي يونغ ونفذ الى غوامض الهيروغليفية وقرأ اسم بتواليميه [1] *Ptolémée* على الحجر المكتشف في رشيد عام ١٧٩٩ بواسطة جندي بونابرتي . والحق ان معرفة اللغة كانت الى حد كبير شرطاً في تقدم علم الاثار المصرية . فهنا كما في غير مكان ،

١ — بتوليميه : فلكي اغريقي ولد في مصر (مات عام ١٦٨) ، وله بعض المؤلفات منها كتاب في الجغرافيا جعل فيه الارض في وسط العالم وجعلها كتلة ثابتة .

سار علم اللغة وعلم الاثار متساويين ، متحدين بشدة بواسطة حلقة علم الكتابات الوسيطة .

وبدافع من تحريض مزدوج ناتج عن الكتاب الفخم « وصف مصر » (١٨٠٩ ، والطبعة الثانية عام ١٨٢١) وعن حل طلاسم الهيروغليفية ، نما الميل الى علم الاثار المصرية بسرعة ، وتأسست مجموعات كبرى في لندن وباريس وبرلين وتورين ولايد . وطاف الالماني ريشار لبسيوس مصر وبلاد النوبة على رأس بعثة هامة (١٨٤٣ — ١٨٤٥) وحمل من هناك مادة ١٢ مجلداً . وفي عام ١٨٥٠ اكتشف مارلييت معبد سيرابيس في ممفيس .

وفي الشرق امتد البحث الاركيولوجي وتحدد في مناطق كان سياح القرن الثامن عشر قد غامروا اليها فقط . ونشر ك. ريك (١٧٨٧ — ١٨٢٠) اولى المذكرات العلمية عن الاثار البابلية . ومن عام ١٨٣٣ الى ١٨٤٠ رسم ك. تيسيه ابنية أثرية قديمة في ارمينيا ، وبلاد فارس ، وبلاد ما بين النهرين وكذلك خرائب هاتوس عاصمة الحثيين . وكلفت الحكومة الفرنسية أ. فلاندان وب. كوست بإعادة بناء ورسم جميع الابنية الأثرية القديمة في بلاد الفرس (١٨٤٠ — ١٨٤١) . وأجرى ب. بوتا قنصل فرنسا حفريات في نينوى وخرساباد (١٨٤٠ وما يليها) ، وتابع ف. بلاس اعمال الحفر هذه . ومن عام ١٨٤٥ الى عام ١٨٥١ نبش أ. لايار مواقع اشورية مختلفة وقام برحلة دراسية (مع استبارات) الى بلاد ما بين النهرين (ميزوبوتاميا) . واكتشف ج. ل. بركهارت عام ١٨١٢ خرائب العاصمة النبطية في البتراء في البلاد العربية . وبدأ الفرنسيون المقيمون في الجزائر الارتياد الكبير للبلاد ابتداء من عام ١٨٣٠ . وفي روسيا فإن اولى الحفريات الأثرية حدثت عام ١٨٣٠ وانتشر البحث العلمي كالمروحة ، الى بعيد ، فشمل افريقيا والقارة الاورازية[١].

١ — اسم يطلق احياناً على قارتي اوروبا وآسيا معاً .

ولكن ربما كانت المكتشفات العائده لعصور ما قبل التاريخ هي الاكثر اهمية بين جميع المكتشفات من ناحية التنسيق وبسبب الاندفاعة الشاملة التي اعطتها لعلم الآثار . « منذ السنوات الاولى من القرن الثامن عشر جرى الاعتراف والاشارة الى تجاور الآثار الصناعية وبقايا الحيوانات المتحجرة في حشايا المغاور. ومعظم العلماء ، امثال كوفيه ، كانوا يفسرون هذه الامور بافتراض وجود تغيير عصري للطبقات العظمية ؛ ويعني هذا اعتبار الشاذ قاعدة عامة . وبدت دنيا العلم غير مصدقة حين اثبت(بوشيه دي برت) عام ١٨٥٠ بشكل قاطع وجود عظام لحيوانات لبونة كبيرة منقرضة في الطمي الموجود في جوار ابيفيل[1] *Abbeville* . الى جانب منتجات صناعة بشرية لا مراء فيها . » (ج . دي مورغان) . والصورة العجيبة الرومنطيقية الغامضة (لبوشيه دي برت) ابن اخ جان دارك حسب علم الانساب ، وهو كاتب ، ومفكر ، ومن اتباع فيثاغورس ، وملهم فكتور هيغو ، ومؤسس علم ما قبل التاريخ ، هـــذه الصورة قد استحضرت حديثاً بمساعدة وثائق غير منشورة .

ومن الافضل اعطاء بعض الوقائع ، وبعض العلامات حول النصف الثاني من القرن ؛ اما الاماكن والتواريخ فهي شهادات ناطقة على تنوع وكثافـــة المكتشفات .

١٨٥٣ ـــ ١٨٥٥ : ارتاد م. دي فوغ سوريا وفلسطين .

١٨٦٠ وما يليها : قاذ ارنست رينان الحفريات في عدة مواقع فينيقية ونشر كتابه « بعثة فينيقيا » (١٨٦٤) .

١٨٦١ وما يليها : رحلة بيرو في غالاتيا وبيتني ، ورحلة ل. هوزي في مقدونيا .

١٨٦٣ وما يليها : نبش ا . لارتيه والانكليزي كريستي مغاور وادي لا فيزير . وأنشأ نابوليون الثالث متحف سان جرمان .

---

١ – مرفأ على السوم يبعد ٤٥ كلم عن إميان .

١٨٧٠ وما يليها : شليمان (انظر فيما بعد) .
١٨٧٤ : اكتشاف الرسوم الاولى في كهوف ألتميرا .
١٨٧٥ وما يليها : حفريات المانية في اولمبيا .
١٨٧٧ وما يليها : حفريات فرنسية في ديلوس وفي إيجه ، وتللو ، وفي بلاد ما بين النهرين السفلى .
١٨٧٨ وما يليها : حفريات المانية في برغام .
١٨٨٤ وما يليها : م. ديو لافون في سوز .
١٨٨١ وما يليها : حفريات يونانية في ابيدور وفي ايلوزيس ، وعلى اكروبول اثينا .
١٨٨٤ وما يليها : حفريات انكليزية في نوكراتيس .
١٨٨٧ : اكتشاف الواح تل العمارنة .
١٨٨٧ : اكتشاف مدفن صيدا .
١٨٩٢ وما يليها : دراسة دولية حول خط دفـــاع *Limes* الامبراطورية الرومانية .
١٨٩٢ وما يليها : حفريات فرنسية في دلفس .
١٨٩٥ وما يليها : حفريات نمساوية في إيفيز ، والمانية في برلين ، واميركية في كورنثيا .

هذه التوضيحات القليلة لا تشكل حتى مبادىء حوليات . فالتعداد البسيط للحفريات ذات الاهمية أو رحلات الارتياد الأركيولوجي التي بوشر بها اثناء نصف القرن هذا في الشرق الادنى ، والنشرات التي نشأت عنها ، يشغل عدة عشرات من الصفحات . فقد اغنى ميدان علم الآثار واتسع بسرعة كـأن نوعاً من التفتت قد نتج عنه . وتطبق نفس الملاحظة الى اعلى درجة على العشرات الاربع الاولى من القرن العشرين . ويشترك العلماء الاميركيون بالبحث بنشاط متزايد وبوسائل قوية . واذا أريد تسجيل مرحلة بأي ثمن — بينما هناك استمرار (وعلم الآثار ، كالطبيعة « لا يثب وثباً ») — فسيقال ان القرن العشرين

رأى الدقة في تقنية الحفريات . واصبحت طريقة الحفر اكثر شدة بين سنة واخرى ؛ وعدا المشاغل الجديدة التي فتحت فان كثيراً من المشاغل السابقة قد أعيد فتحها ووُسِّعت وعُمقت : لقد اصبح العلم اكثر تطلباً ، واكثر دقة ، يعرّي كل اثر للرومنطيقية . ويمكن عرض الحفريات الانكليزية في في اسبارطة (١٩٠٧ — ١٩١١) والحفريات الاميركية في اغوار اثينا (١٩٣١ — ١٩٣٩) كنماذج للحفريات الكلاسيكية في ذلك العهد ، عدا حفريات بومبي وهركولانوم (انظر الفصل السادس) . ومن ناحية اخرى فان العمل الكبير الذي يسيطر على فترة ما بين الحربين (١٩١٩ — ١٩٣٩) هو زيادة عدد المشاغل في الشرق الادنى وفي مصر ؛ اذن خارج الميدان الاغريقي الروماني الصرف . واذا وجب الاختيار بين عدد من المكتشفات ، فسنذكر حفريات السير جوهف مارشال وماكاي في موهانجو — دارو وفي هارابّا ، في وادي الاندوس (الالف الثالث قبل المسيح) .

اما الدراسة التحليلية والتاريخية للآثار الفنية ، فان القرن العشرين متميز برد فعل إنتقادي ، وانتقادي لاذع احياناً ضد « الانطباعية » الممثلة على الخصوص بعالم الآثار الالماني الممتاز ا. فورونغلر (١٨٥٣ — ١٩٠٧) حيث استرعى الانتباه كتابه « طُرق الفن التشكيلي الاغريقي » (بالالمانية عام ١٨٩٣ وبالانكليزية ، طبعة منقحة ، ١٩٠٦) . ومن الصعب الرؤية جيداً في الوقت الحاضر ، ولكن يبدو ان غزارة وجهات النظر والمجادلات تؤمّن لتاريخ الفن نوعاً من التوازن .

وعلينا ان نذكر في الفصل التالي اسماء بعض العلماء المنتمين الى حالية علم الآثار . ولنذكر هنا اثنين من كبار « مبتدعي » الحضارات : شليمان والسير ارثير ايفانس . ويجب الاحتراز من وصفهما على مخطط واحد ! فالاول لا يزال يمثل علم الآثار نصف الرومنطيقي بينما ينتمي الثاني الى القرن العشرين .

وشليمان ، من ماكبورغ ، ولد عام ١٨٢٢ . وكان في بادىء الامر نوتياً

وبقالاً . وسنحت له الفرصة ، كممثل لبيت تجاري في امستردام ، ليسافر كثيراً في اوروبا ، وخصوصاً في ايطاليا واليونان ، وحتى في مصر وسوريا . ولما كان قد جمع ثروة فانه كرس نفسه للجاهلية اليونانية ؛ وكانت فكرته الكبرى أن يجد آثار طروادة وآثار الامراء الهوميريين على البر اليوناني . وباشر عام ١٨٧٠ حفريات طروادة – هيسارليك ؛ وتلة هيسارليك – وهي معروفة جيداً منذ الحفريات التكميلية التي اجريت ابتداء من عام ١٨٩٠ – تشتمل على خرائب تسع مدن بعضها فوق بعض (وقد رُقمت من اسفل) ، ويعود أقدمها الى العصر البرونزي ، وآخرها هي إيليوم اغسطس ؛ وكان شليمان قد حقق هوية طروادة الهوميرية بأنها المدينة رقم٢ ، مع أن هناك اتفاقاً اليوم [١] لإعطائها الرقم ٦ ؛ ولكن الطريقة الناقصة التي اتبعها شليمان توضح كيف استطاع اهمال تلك الطبقة التي شوهتها اسس مدينة اغسطس . وشليمان الذي استهوته النصوص الادبية ظن انه سيجد في ميسين وتيرانت قبور وعظام اغاممنون وعائلته : في الواقع جاءت هذه الحفريات بكثير من الفوائد ؛ فقد كشفت عن عالم مجهول .

ولزمت حفريات ايفانس في كريت ، والتي بدأت عام ١٩٠٠ ، لالقاء النور على حفريات شليمان في ميسين . ففي كنوسوس [٢] *Cnossos* وحول كنوسوس اتاح القصر الكبير ، والقصر الصغير ، والدارة الملكية ، والمدافن لعالم الآثار الكبير إبراز حضارة تعود الى ما قبل التاريخ ، ويعود شكلها الاكثر قدماً الى الألف السادس قبل المسيح ، والشكل الاكثر قوة ، في الالف الثاني ، سابقاً ايضاً للقصور التي اكتشفها شليمان في ميسين وتيرانت . ولم يظهر الهلينيون في التاريخ الإيجي الا كمجتاحين برابرة ؛ والموجات الاولى قد اكتسحتها جزئياً حضارة المينونيين [٣] المهذبة : منوعات غير منتظرة من

١ – اتفاق ناقص : فهناك « مسألة طروادة » .

٢ – كنوسوس : عاصمة كريت القديمة ، كانت قاعدة الملك مينوس وفيها قصره .

٣ – اسم يطلق على شعوب كريت في العصور القديمة (٣٠٠٠ – ١٢٠٠ قبل المسيح) .

الشعر اللاتيني ترينا ، بعد خمسة عشر قرناً ، اليونان المغلوبة تتغلب على الروماني الوحشي المتغلب عليها . ولكن الهجمة الدوريدية [1] كانت رهيبة ، وقد مضت عدة قرون مظلمة قبل ان يشعل من جديد في الارض اليونانية حضارة كبيرة .

---

١ ــ نسبة الى دوريد ، وهي منطقة من اليونان القديمة الى الجنوب من تساليا .

٤

تطوّر واتساع
التنقيبات: علوم الآثار

ان المخطط الاجمالي الذي حاولنا وضعه عن نمو علم الآثار يساعدنا بسرعة ومهما كان ناقصا ، على ان نفهم بشكل افضل الشواغل المشتركة التي يتقرر بواسطتها رابط بين تنقيبات ذات ميادين مبعثرة زمنيـاً وجغرافياً . وليس علم الآثار تحقيقاً عن الماضي غير محدد ، انه تحقيق عن مختلف الحضارات : فهناك علوم آثار بقدر عدد الحضارات ؛ وفهم علم الآثار يتعلق بفهم الحضارة فما هو الأول تاريخياً (وبالتالي ، بالاهمية) بين العلوم التي نهتم بها في الوقت الحاضر ، العلم الأم لجميع العلوم الاخرى ؟ انه علم الآثار الكلاسيكي ؛ فقد ولد من الرغبة في فهم ، بشكل افضل ، ما اعتبره رجال النهضة والأزمنة الحديثة ، واغريق ورومان الامبراطورية، كحضارة بشرية جيدة . وامتـد الاهتمام شيئاً فشيئاً الى اشكال اخرى من الثقافة . وولدت علوم آثار اخرى . واشتد هذا الاهتمام بالنسبة الى اليونان وروما ، ومن ناحية اخرى بالنسبة الى المسيحية . واذا اتجهت الانظار نحو مصر والشرق الادنى فلكي يكشفوا فيها عن آثار حضارات تلامس المحيط الاغريقي – الروماني وتاريخ المسيحية عن قرب : ان زاوية العالم الممتدة من اثينا الى القدس هي مهد الحياة الفكريـة والروحية في الغرب . ثم امتد البحث الى جميع انواع الميادين وجميع انواع

العصور ، واصبحت الكرة الارضية مشغلاً فسيحاً وطد علم الآثار حقوقه عليها كلها ، ولكن الحلم المبسط لتحقيق مستوعب ومنسق سوف يتحقق ذات يوم بنوع ان جميع الاكتشافات سوف تترتب بالنسبة الى عدد من المراكز الهامة : ليست الكثافة الاركيوجية هي نفسها في كل مكان ؛ انها تتوقف على الاماكن والشعوب ؛ وهذه كلها لم تشارك مشاركةً متساوية في تطور البشرية.

وعلم **الآثار العائد لما قبل التاريخ** يحتل مركزاً على حدة انه « علم العاديات السابقة لأكثر الوثائق التاريخية قدماً » [1] ، ولا يتلقى العون من اية دراسة متعلقة باللغات (فيلولوجية) وينصرف الى وسائله الخاصة . « ولما كان ظهور الانسان في جميع بلدان العالم اكثر تأخراً عن الآثار الاولى المحفورة او المكتوبة ، فان سلسلة طويلة من القرون تتفلت من مباحث التاريخ . ولكن القبائل التي لا أسماء لها والتي كانت في الاصل تحتل مختلف مناطق العالم قد تركت آثاراً عديدة من صناعتها ، منثورة حول دورها ، محتشدة في مدافنها ، مخبئة عمداً في الارض او ضائعة على سطحها . ان علم آثار ما قبل التاريخ يبحث عن هذه البقايا ويصنفها . وبدراسة طريقة تنضيد البقايا يتحدد نظام التعاقب والعصر النسبي . وعند ذلك ينجح في ان يعيد رسم تطور الحضارة في خطوطه الكبرى منذ بدء البشرية » (ج. ديشيليت) . اذن فهذا العلم يمثل وحده سلسلة من الحضارات . انه يعود الى اصول البشرية حتى اول ظهور هيكل عظمي بشري او من جنس بشري *Hominien* . ولكن الى اين ينحدر ؟

---

١ — كتب ج. دي مورغان بشأن هذا التعريف المنسوب الى ج. ديشيليت : « انه غير كامل ، لانه لا يطبق إلا على البلدان التي تملك ، منذ قرون، المستندات المكتوبة ولا يتناول الشعوب البربرية التي عاشت حتى ايامنا خارج التاريخ . ويبدو انه لا يشمل سوى العصور القديمة العالية جداً . ويجب ان يفهم بكلمة « ما قبل التاريخ » بحيث تمنح كل قيمتها في الزمان كما في المكان ، وان تمتد الى جميع الشعوب وجميع المسائل المتعلقة بوجود الانسان ، تلك المسائل التي لا تعلمنا الوثائق الكتابية الصادرة عن الشعوب نفسها عنها شيئاً سواء اكان عن العصور الاكثر قدماً ام عن الازمنة المعاصرة. ويمكن القول ان الإثنوغرافيا تختلط بعلم آثار ما قبل التاريخ .

ان الانتقال طويل بين العصور المغفلة والعصر التاريخي . وقد خلقت ايضاً اللفظة السهلة ، المبهمة للعصر الوسيط بين ما قبل التاريخ والعصر التاريخي — لفظة ظلت طويلاً لم تحدد لكل منطقة . وتطبق مبدئياً على فترة وسيطة لا نملك عنها نصوصاً واضحة بعد ومع ذلك فقد استعلمنا عنها بواسطة تقاليد لاحقة في الغالب ، مجزأة . مشوهة بشكل يكثر او يقل . الا اننا نتأكد عند علماء ما قبل التاريخ من وجود حيرة ومتناقضات في استعمال هذه اللفظة : وينشأ ذلك عن الصعوبة في تعريف العصر الواقع بين عصر ما قبل التاريخ والعصر التاريخي [١] . بالنسبة لعصر ما قبل التاريخ والتاريخ الصرف : بنوع ان المشكلة غيرت مكانها فقط . ولنسجل ان التاريخ يبدأ في بعض المناطق قبل مناطق اخرى بكثير . ففي مصر مثلاً يبدأ قبل بلاد الغال بألفي سنة . وفضلاً عن ذلك فالتقسيمات الكبرى لما قبل التاريـخ — العصر الحجري القديم (الباليوليتي) . العصر الحجري الاخير (النيوليتي) : العصر النحاسي [٢] ، العصر البرونزي . العصر الحديدي — ليس لها نفس التسلسل التاريخي في كل مكان ؛ فالبرونز وجد في الشرق الادنى منذ الألف الرابع قبل المسيح ، وفي اوروبا في القرن الثاني فقط . واخيراً . من الصعب جداً اقرار حدود واضحة بين مختلف اقسام ما قبل التاريخ . وخصوصاً حين نحاول ايجاد اطار له قيمة عامة : ومن هنا كان تعدد الحقب الوسيطة (مثلاً . العصر الحجري الاوسط « الميزوليتي » بين العصر الحجري القديم « الباليوليتي » والعصر الحجري الاخير « النيوليتي ») ؛ وكذلك فالتقسيمات التي يستوجبها العصر الباليوليتي او العصر النيوليتي خاضعة للمناقشة والمراجعة . وحيرة المصطلحات تعكس حالة دراسات عصر ما قبل التاريخ التي لا تزال مشوشة . رغم كل التقدم الذي تم منذ قرن . وفعلاً تأكد لي ان علماء آثار نوابغ اسقطوا في بلاد غاليا Gaule (فرنسا قديماً) من حسابهم

---

١ — Protohistorique

٢ — يقال عادة « اينوليتي » للدلالة على تلك الفترة الوسيطة بين العصر النيوليتي (الحجر المصقول) والعصر البرونزي .

عصر ما قبل التاريخ حتى العصر البرونزي [1] بان بدأوا العصر الواقع بين ما قبل التاريخ والعصر التاريخي مع استعمال الحديد ، بينما يحدد آخرون العصر الآنف الذكر بالعصر الباليوليتي . ولا يوجد هنا سوى مسألة اصطلاح يسهل الاتفاق عليها ؛ ولكن الاختلافات تحدث في نقاط اخرى حول الشك في المذهب .

وعبارة « علم آثار ما قبل التاريخ » يجب الا تُعرض على نفس المخطط كعبارتي « علم الآثار الاغريقي او الاسلامي » ؛ فهي لا تطابق حضارة اتحادية . انها تحشد لكل عصر من عصورها عدة مدنيات مبعثرة على وجه الكرة الارضية كله : « ان بقاء استعمال الحجر ، وجهل الكتابة عند عدد كبير من الاقوام يجعلان عصر ما قبل التاريخ يمتد حتى ايامنا . اذن لا يمكن تحديد تواريخ لمختلف الصناعات الا اذا نظرنا اليها من وجهة النظر المحلية ؛ لأنه لا يمكن وجود اي رابط تاريخي بين الحوادث التي جرت في بلادنا والحوادث التي شهدتها اوستراليا مثلاً . ان لكل من الصناعات المختلفة الكثيرة التنوع عصرها ومساحتها الجغرافية المحدودة » (ج. دي مورغان) . وبضرورة تفرض نفسها على كثير من العلوم الاخرى ، فان الابحاث تتابع في اغلب الاحيان في الأطر السياسية الحديثة ، بمساعدة الجمعيات التاريخية الاقليمية والقومية والحكومات نفسها (ومع ذلك ، فان عصر ما قبل التاريخ ذو علاقة بالاوضاع الجغرافية والجيولوجية الكثيرة الاختلاف عن اوضاع اليوم ؛ انه مستقل عن الاشكال السياسية الحالية) . هكذا تنظم عصر وطني لما قبل التاريخ – مرحلة نحو تأليف اكثر اتساعاً – مؤسس هو ذاته على عصر اقليمي لما قبل التاريخ . والمؤلف الكبير الذي كتبه ج. ديشيليت *J. Déchelette* ، والذي بدأ به عام ١٩٠٨ ، واستمر العمل به بعد موت المؤلف (سقط في سبيل فرنسا في ٣٠ تشرين الاول ١٩١٤) بواسطة ا. غرنيه ، عنوانه « مختصر في علم

١ – هـ. بروي *Breuil* « العلم الفرنسي » ، المجلد الثاني ، صفحة ٤٥ .

آثار ما قبل التاريخ والآثار السلتية والغالية ــ الرومانية » وقد جاء في المقدمة « وموضوعه دراسة العصور الغالية القديمة منذ ظهور الانسان حتى سقــوط الامبراطورية الرومانية » . وغني عن البيان ان بلاد غاليا *La Gaule* هي اطار اصطلاحي يتحطم من جميع النواحي : ويُعرف ذلك بسهولة بان نقرأ مثلاً التقارير المقدمة الى « المؤتمر الاركيولوجي الفرنسي » عام ١٩٣٤ من قبل الاب هـ . بروي *Breuil* (اكتشافات في فرنسا تعود الى العصر الباليوليتي) ومن قبل ر. لانتيه (قرن من اركيولوجية الفترة الوسيطة بين عصر ما قبل التاريخ والعصر التاريخي) . وليست الحدود بسيطة ولا واضحة سواء اكان من الناحية التاريخية ام الجغرافية وحفريات كحفريات مدينة سان ريمي دي بروفانس اليونانية ، والمنتمية الى العصر التاريخي بالذات في حدود انها كشفت عن ابنية وأشياء اغريقية ، تشكل طرفاً تاريخياً على ارض لا يزال قسم كبير منها في حالة ما قبل التاريخ .

وبالاختصار فان علم آثار ما قبل التاريخ يتميز عن العلوم الاخرى التي مررنا بها بديمومته التي تمتد على عدة عشرات من آلاف السنين ، وبشموله الذي يغطي الكرة الارضية بكاملها ، وبتنوع الحضارات التي يشملها ، وبطبيعة الوثائق التي يدرسها ، تلك الطبيعة التي هي صناعية اكثر منها فنية . وهذا العلم المنذور لنوع من الغموض بسبب عدم وجود التقليد الكتابي ، يستدعي ارتياداً لمصادره بشكل اكثر انتباهاً ودقةً وشمولاً . والحق اذا كانت الابحاث قد تقدمت بحمية في اوروبا منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، واذا كانت افريقيا الشمالية (١) قد قدمت بعض الاكتشافات الهامة ، واذا كانت المشاغل الاوروبية تتضاعف ، فان سبر اغوار عصر ما قبل التاريخ لم يكد يبدأ في آسيا الواسعة ، باستثناء الشرق الادنى (رغم بعض الاكتشافات التي اثارت ضجة

١ ــ للقسم الغربي من افريقيا الشمالية انظر على الخصوص الفصول الاولى من الكتاب الذي وضعه ا. ف. غوتيه بعنوان : « ماضي افريقيا الشمالية » (١٩٣٧) .

كاكتشافات « سينانتروبوس بيكينانسيس » . وقد كتب ج. دي مورغان عام ١٩٢١ : « ان الدراسات المتعلقة بما قبل تاريخ الانسان لا تزال في دور الطفولة ، مع انها نشأت منذ قرن تقريباً . ورغم التقدم العظيم الذي تم منذ عشرين سنة فان هذا التصريح يظل ذا قيمة كبيرة . والبعثرة البالغة للوثائق المنشورة تتيح بصعوبة للمرء ان يحدد الوضع . وهناك اثنان من علماء الآثار الفرنسيين مر ذكرهما ، هما : ه. بروي و ر. لانتيه . قد أعلنا عن قيامهما بدراسة شاملة ستستقبل بالترحاب .

واصبح علم آثار ما قبل التاريخ موزعاً الى قطاعات في بعض علوم الآثار التي سنتكلم عنها الآن .

للاسباب التي عرضناها في بدء هذا الفصل فان شرق البحر المتوسط هو مركز علم الآثار الذي تتحد فيـــه ليس العلاقات الجغرافية فقط ، بل التأثيرات المتبادلة .

ان علم الآثار الكلاسيكي [١] . العميد والملك الذي لا جدال فيه . يهدف شيئاً فشيئاً الى ان ينقسم الى علم آثار اغريقي وعلم آثار روماني ؛ لا لأن وحدة الحضارة الاغريقية – اللاتينية تبدو اليوم اقل تأكيداً مما كانت عليه منذ مئة سنة ، بل لأن تعدد حقول الحفريات ، وأهمية الآثار المكتشفة وتنوعها المتزايد ، كمشاكل معروضة ، تجبر معظم علماء الآثار على التخصص ، وعلى نقل جهودهم الى احد هذين الميدانين الكبيرين . وصحيح ايضاً ان تقدم علمي الآثار الاخوين قد قادا الى وضع اليد، مع الامتزاج الخالص في الوقت نفسه ، على الفروق العميقة التي تفصل الحضارتين في كثير من النقاط . ومن خلال تاريخ العصر الوسيط [٢] والعصر التاريخي يوجد اتصال متتابع ، ثم توحيد

---

١ – او « القديم » بالمعنى الحصري لهذه الكلمة المتعلقة ، في الغالب ، بالعصور الكلاسيكيـــة القديمة الاغريقية والرومانية .

٢ – العصر الوسيط : اقصد به هنا ما تفيده كلمة *Protohistorique* اي الفترة الواقعة بين عصر ما قبل التاريخ والعصر التاريخي .

سياسي للعالمين الاغريقي والروماني ، دون ان يتحقق اي تمثل حقيقي وامتزاج. ويوجد علم آثار مختلط ، عن العلاقات بين اليونان وروما ، ليس هو الاقل غرابة .

وعلم **الآثار الاغريقي** امتد منذ خمسين سنة امتداداً غير منتظر ويستحق الاعتبار بقدر ما يوجد من ماض طويل وراء هذا العالم . ويمكن القول ان اكتشاف العالم الاغريقي بواسطة علم الآثار قد حدث بالعكس الى حدٍ ما ، بصعوده في مجرى الزمن : لم يعرف الغرب في بادىء الامر سوى يونان منقولة بواسطة نسخٍ من العصر الروماني ؛ ثم اكتشف مؤرخو الفن آثار القرن الخامس الاصلية في فيغالي . وخصوصاً في البارتنون ؛ وقد اطلعتهم جبهيات [1] إيجين على فن ما قبل الكلاسيكي وشيئاً فشيئاً ، في مجرى القرن التاسع عشر . وفي العشرات الأخيرة على الخصوص ، فان اعمالاً متفرقة او مجموعات كتماثيل الاكروبول التي شوهها الفرس عام ٤٨٠ ؛ وككنوز سيفنوس واثينا ايضاً في دلفس كشفت عن قوة فنٍ قديم نال رضا كثير من العلماء والفنانين . وفي الوقت نفسه انبثقت من اعماق العصور حضارة مجهولة ، بواسطة اعتناءات شليمان في طروادة وفي ارغوليد ، ثم بواسطة اعتناءات ايفانس في كريت في بدء هذا القرن . حضارة شبه تاريخية ، لأنها متعلقة بالتقاليد الرائعة لحرب طروادة ومينوس ، وحضارة ما قبل تاريخية او وسيطة ما دامت الواح كنوسوس وبيلوس لم تحل طلاسمها بعد وما دام هناك الواح اخرى لم تكتشف بعد . وقد نمت حفريات ما قبل العصر الهيليني شيئاً فشيئاً في كريت ، وفي البر اليوناني وفي الجزر : وبفضل السيراميك ودراسة الطبقات الارضية علمياً («ستراتيغرافيا») (انظر الفصل الخامس) فان

---

١ — جبهيات *Frontons* : والمقصود بها مثلثات مزخرفة في اعلى مدخل البناء .

أحداثاً متوازية يمكن ان تتقرر في هذه الميادين الثلاثة (المينون [١] والهيليني [٢] والسيكلادي [٣]) ودرس العلاقات التي توجد بينها هو احدى مشاكل علم الآثار الإيجي او الكريتي — المسيني . وليس هناك اي اثر حضاري في اليونان الا ويعود الى ما وراء العصر النيوليتي ، وكل شيء يدعو الى الظن ان هذه الزاوية الصغيرة من اورازيا الفسيحة ، حيث رُفعت المدنية الى درجة لا مثيل لها ، هي احدى الزوايا الاكثر تأخيراً في اعمارها بالسكان . ومشاكل الاصل والتأثير تعرض بكثرة لعلم آثار ما قبل العصر الهليني . ويهدف هذا العلـــم بتواضع الى توضيح ، وبالاحرى الى حل ، مشاكل كمشكلة العلاقات بين الحضارة الايجية وحضارة آسيا السالفة او مصر ، وليس بين هذه الحضارات من بلغ درجة النضج ، وليس بينها من يرضى بتأكيدات مطلقة . وقد بان تقدم عظيم في هذا الميدان بعد الهزات العنيفة في الطريقة الاركيولوجية بين عام ١٨٧٥ و ١٩١٤ .

اذن فقد تأسس في قلب علم الآثار الاغريقي او الى جانبه علم آثار يعود الى ما قبل العصر الهيليني او الإيجي يلقي استجواباته من جميع الجهات ، وليس هو ، من ناحية اخرى ، سوى مزج من علم آثار ما قبل التاريخ والعصر الوسيط بين ما قبل التاريخ والعصر التاريخي . ولكن بما ان الحضارات الكريتية والمسينية قد تألقت ببريق شديد وظهرت بواسطة آثار اصلية جداً ، فان علم آثار ما قبل العصر الهيليني لذو استقلال اكيد .

وعلم الآثار الاغريقي في قسمه الاقرب عهداً لا يلتقي مع علم الآثار

---

١ — المينون *Les Minoens* : من شعوب جزيرة كريت في العصور القديمة (٣٠٠٠ — ١٢٠٠ قبل المسيح) .

٢ — الهيليني *Hilladique* : نسبة الى هـــلاد *Hellade* وهو الاسم البدائي لليونان .

٣ — السيكلادي *Cycladique* : جزر في ارخبيل اليونان سميت هكذا لأنها تشكل دائرة حول ديلوس وأشهرها جزر ديلوس ، اندروس ، زيا ، اثينوس ، نكسوس ، باروس .

الروماني . فالحضارة الاغريقية ببحارتها ومستوطنيها تتفرق على ساحل البحر المتوسط وفي البحر الاسود منذ القرن الرابع قبل المسيح . وتتابعت الاتصالات في العصر الكلاسيكي مع السكان الذين يدعون برابرة . وفتح الاسكندر للشرق ولمصر كان من تأثيره ، الى حد كبير ، انه صبغ العالم القديم بالصبغة الهيلينية ؛ وبعد قرنين فان اليونان المغلوبة ستطبع الغرب اللاتيني بطابعها وتفوقها الروحي . وكذلك فجميع علوم الآثار التي سنذكرها تستوجب ملخصاً وفصلاً يونانيين . وكتاب « مختصر علم الآثار الاغريقي » هو في طريق النشر ؛ وظهر مجلدان يتعلقان بالنحت منسوبان الى ش. بيكار ، وذلك عام ١٩٣٥ و ١٩٣٩ : مؤلف اساسي .

وعلم الآثار المصري هو الذي له في المعرفة ألقاب شرف هي الاكثر قدماً بعد علم الآثار الكلاسيكي . ومن السهل تعريف حدوده الجغرافية ؛ فوادي النيل تعزله الصحراء من الغرب ومن الشرق ؛ ولكن ليس في هذه العزلة شيء مطلق : القوافل تجتاز القفر من الغرب ، والفتوحات المصرية تمتد حتى بلاد النوبة والحبشة ، والبحر الاحمر يرطب قليلاً ، ودلتا النيل ذات مرافىء عديدة تجعل مصر على علاقة بالعالم الشرقي والمتوسطي ؛ ويوجد على الخصوص طريق سهل نسبياً وقصير يوصل الى مصر بطريق البر ؛ وكانت الغزوات تجتازه في الاتجاهين خلال العصور : انه الطريق الساحلي الذاهب من وادي النيل الى فلسطين . اذن ليس العالم المصري عالماً مغلقاً (علاقاته مع آسيا السالفة ومع كريت هي بالدرجة الاولى حاليّة اركيولوجية) ، ولكنه في مجموعة محددة افضل من العالم الاغريقي ، بحضارته المجتاحة . انه يمثل كتلة لا تؤثر فيها الفتوحات الا قليلاً . فالاسكندر ضم مصر دون ان يتمثلها او ان يجعلها هيلينية ؛ وامبراطورية اعقابه البطالسة [1] المزدهرة تقدم تسوية عجيبة بين الماضي الحي

---

١ — البطالسة *Les Lagides* : ملكة مصرية رئيسها بطليموس ابن لاغوس احد قواد الاسكندر وقد دامت من ٣٠٠ — ٣٠ قبل المسيح .

وبرنقة *Vernis* المدنية الهلينية . ولنذكر ، بتحفظ ، التواريخ التقريبية التي تؤلف اطار علم الآثار المصري : العصر الباليوليتي حتى عام ١٠٠٠٠ قبل المسيح ؛ العصر النيوليتي (ظهور السيراميك) من عام ١٠٠٠٠ الى عام ٦٠٠٠ او ٥٠٠٠ ؛ عصر النحاس من عام ٦٠٠٠ او ٥٠٠٠ حتى عام ٣٠٠٠ تقريباً ؛ الدور المصري الصرف حتى فتح الاسكندر (٣٣٢) ، العصر الاغريقي الروماني . لن نحلل هنا تطور الفن المصري ولا ان نثبت لائحة بالحفريات والمجموعات الكبرى التي عرّفت عليها ؛ لنذكر فقط الحادث العرضي العجيب جداً الذي قامت به ثورة امينوفيس الرابع — اخناتون الدينية (السلالة الثامنة عشرة) وخرائب تل العمارنة التي تتيح اظهارها بشيء من التوضيح : واكتشاف قبر خلفه توت عنخ امون — القبر الملكي المصري الوحيد الذي لم ينهب — بواسطة كارتر وكارنافون في ١٦ تشرين الثاني ١٩٢٣ ، كان حدثاً عالمياً [١] .

وعلم آثار الشرق الأدنى معقد الى النهاية ، فالاستمرار الذي يميز مصر ، والمدين في قسم كبير منه الى الجغرافيا والى بقاء السكان الاصليين يشكل خطئاً هنا ، فقد انتهى تقدم البحث منذ جيلين الى اظهار قيمة ثروة لم يكن لدى علماء القرن التاسع عشر اية فكرة عنها . بينما الأطر الاقليمية والتاريخية والاركيولوجية الاغريقية ، او حتى المصرية ، هي واضحة نسبياً وقد جاءت الاكتشافات الجديدة تندمج فيها دون ان تحطمها ، ودراسة الشرق الادنى الآسيوي هي في اوج تطورها ، وليس من المبالغة القول ان معظم الحفريات الكبرى التي جرت في العشرات الاخيرة قد بدلت المظهر . فقد ولدت حضارات وماتت ، وتأسست امبراطوريات واسعة وانهارت ، من سواحل بحر إيجه الى وادي الأندس ، ومن شبه جزيرة سيناء الى بحر ارال ، خلال اربعة آلاف

---

١ — ظهر المجلد الاول من كتاب « مختصر الاركيولوجيا المصرية » بقلم ج . جكيه . بعنوان « عناصر الهندسة المعمارية » ..

سنة قبل المسيح . وليست غزارة المادة هنا سوى اقل عائق لعرض منسق حول التنقيب الاركيولوجي في حالته الحاضرة : انه جهلنا ، انه غياب الرؤية الذي يمنع الاختصاصيين انفسهم من تقديم لوحة موجزة وواضحة . وكتاب « موجز في الاركيولوجيا الشرقية منذ البدء حتى عصر الاسكندر » بقلم ج. كونتينو ، في ثلاثة مجلدات ، يقدم افضل ايضاح ممكن في الوقت الحاضر . وها هي ، من ناحية اخرى التقسيمات التاريخية الكبرى التي اقترحها اختصاصي الماني هو ف. اندريا في بيان حديث :

١ — عصر ما قبل السلالات المالكة (٥٠٠٠ — ٣٥٠٠) .

٢ — ايقاظ الحس بالابنية الاثرية وازدهاره الاول في عهد الامراء واسمه غير معروف : عصر الاوروك *Uruk* الخ ... (٣٥٠٠ — ٣١٠٠) .

٣ — الفن في عهد الامراء واسمه معروف (حوالي ٣١٠٠ — ١٧٠٠) ويرد بين التقسيمات عصر غوديا دولاغاش (بعد ٢٣٠٠ وعصر السلالة الاولى في بابل (حمورابي ٢٠٠٠ — ١٧٠٠) .

٤ — زمن الشعوب (حوالي ١٩٠٠ قبل المسيح حتى ٣٠٠ بعد المسيح) : القاسيون *Les Cassites* ، والشوري *Chourri* (ميتاني ، سوبراتو) ، والحثيون ، والاشوريون ، والفرس ، واغريق الاسكندر والسلوقيون ، والبارتيون .

هذه اللوحة تترك فينيقيا وفلسطين جانباً . ونحتار في الاختيار بين جميع اسماء الحفريات الحديثة التي سيؤتى على ذكرها على الاراضي الفسيحة التي تغطيها اركيولوجية الشرق الادنى : واسماء مثل تل العبيد ، بوغار كوي ، كركميش ، ارسلان — طاش ، رأس شمرا (حيث اكتشف ادب ديني يعود الى منتصف الالف الثاني قبل المسيح) ، جبيل ، الـخ .. تثير لدى علماء الآثار وقائع واضحة تساعد شيئاً فشيئاً على حل طلاسم العوالم المنقرضة . وهناك عناصر ترمي الى الانفصال منذ اليوم في قاب هذه الكتلة الفسيحة : فهناك مثلاً حضارة

حثية محددة جيداً بحيث يستطاع الحديث عن علم آثار وفن حثيين (دُرسا في كتب خصصت لهما) ، كما يوجد لغة حثية . وهناك انفعالات اخرى تمهد لنفسها وسوف تتضاعف بمقدار تنظيم التشوش الاولي .

لنحيّ ظهور كتاب « مختصر اركيولوجية التوراة » الجزء الاول الذي ظهر حديثاً ، تأليف ا. ج. باروا . وقد قلنا ان مفهوم علم الآثار يتعلق بمفهوم الحضارة . والتوراة التي هي بالذات كتاب حضارة ، تستدعي علم الآثار . ما هو المقصود ؟ جمع المعلومات الممكن استخراجها من الحفريات التي توبعت في فلسطين والتي تلقي ضوءاً على الحضارة العبرية وعلى السكان الذين كانوا على اتصال دائم بها .

ويحق لنا ، خصوصاً منذ حفريات آغيا إيريني السويدية التي بدأت عام ١٩٢٧ ، ان نتكلم عن اركيولوجيا قبرصية تقدم مظاهر خاصة جداً . الا ان الجزيرة جردت جزئياً من سحرها بواسطة البحث الاثري . انها لن تقدم شيئاً مماثلاً لما قدمته كريت . وقد نسب الى جزيرة قبرص دور رئيسي كوسيط بين الشرق والغرب ؛ واعتبر ان الفن الاغريقي كان على اتصال فيها بالتأثير الآسيوي ؛ والحق انها تبدو كمقاطعة مفتوحة على التأثيرات الخارجية ، ولكن دون قوة مبدعة .

وفي الطرف الشرقي من المنطقة التي جلنا فيها كانت حضارة الأندس (الالف الثالث قبل المسيح) ، مع حفريات موهانجو ـ دارو (في السند) وهارابّا (في البنجاب) فتحاً حديث العهد ـ لما بين الحربين ـ والحفريات التي تُتابع في نال *Nal* في بلوخستان تستعمل كرابط جغرافي بين الاندوس وبلاد ما بين النهرين (وميزوبوتاميا) « مهما كانت علاقات حضارة الاندوس بعيلام وميزوبوتاميا السومرية ـ الأكادية ، فان هذه الحضارة تكشف عن استقلال ثقافي حقيقي . وهي ايضاً تجعلنا نفترض وجود تنظيم اجتماعي قوي ، لأن المجتمع الثري المستقر يستطيع وحده بناء تلك المدن الواسعة الصادرة عن تنظيم مدني متقن . وميدانها ممتد جداً .. ؛ فهو يغطي في حوض الاندوس نطاقاً يزيد على نطاق مصر او ميزوبوتاميا » (ر. غروسيه) .

لن نذهب الى الشرق ، حتى اننا لن نحاول رسم اطار اركيولوجية ما قبل التاريخ والعصر الوسيط والعصر التاريخي للهند، وسيلان، والصين، واليابان الخ.. وكل ما نفعله هو اننا سنشير الى المشكلة الآسرة، مشكلة العلاقات بين العالم الهيليني والهند ، وحتى الصين . ان الفن الاغريقي البوذي الذي درسه ا. فوشيه ليس سوى حلقة من الانطلاقة الاغريقية نحو آسيا . الا ان مذاهب توفيقية عجيبة قد حدثت على حدود اخرى من الهيلينية : في مصر ، في تراس[1] Thrace (يوجد بالتأكيد اركيولوجيا تراسية ، ثم تراسية – اغريقية) في شبه جزيرة القرم ، الخ .

ويلزمنا ان نعود نحو الغرب ونحو تلك الغرسة الاخرى من الاركيولوجيا الكلاسيكية التي مركزها روما . ولكن الحضارة الرومانية لم تستقر دفعة واحدة على الارض الفسيحة التي سوف تراقبها الامبراطورية ، ولم تأخذ العادات والتقاليد المحلية : هناك تأثير ، واحياناً ببساطة ، تقارب . لنضع جانباً قبل كل شيء ما لا يزال حتى الساعة لغزاً لعلماء اللغات والمؤرخين :

الحضارة الاتروسكية : هناك اركيولوجيا اتروسكية، بحفرياتها (فاي Veii ، كير ، فولسي ، الخ .) ووثائقها الخاصة . ولنتذكر ايضاً وجود عصر ما قبل التاريخ وعصر وسيط ايطاليين، حيث الغزوات الشمالية والايلليرية[2] Illyrique تلعب الدور الاول . ويوجد في صقلية وسردينيا مستعمرات فينيقية ، وفي صقلية وايطاليا الجنوبية مستعمرات اغريقية . وتقدم سردينيا حضارة عجيبة جداً في بدء الالف الاول قبل المسيح ، الخ .. والاستكشافات الاركيولوجية في جميع هذه الميادين بعيدة عن الانتهاء .

والاركيولوجيا الرومانية البحتة يمكن ان تدرس في عناصرها المشتركة . ففي كل مكان اقامت فيه جحافل روما معسكرها وحملت السلام الروماني،

---

١ – مقاطعة في شمال بلاد الاغريق القديمة يؤلف جزء منها اليوم جنوبي بلغاريا .

٢ – ايلليريا : منطقة جبلية بلقانية على محاذاة الادرياتيك .

حملت معها وتركت بعدها طريقة في بناء وزخرفة الابنية الاثرية ، وحملت العبادات ، والنقود والاوزان ، والمقاييس . وجميع الاعمال المشتركة جُمعت في كتاب مختصر *Manuel* ككتاب ر . كافيا و ف . شابو . ولكن امكانات اخرى قد سنحت : اركيولوجية افريقيا الرومانية مثلاً ، بحقول حفرياتها العديدة والمتنوعة ، تعرض مشاكل خاصة ؛ ومن الشرق إلى الغرب فإن لبتيس مانيا وسابراتا في طرابلس الغرب ، ثم في افريقيا الشمالية الفرنسية ، قرطاجة ، اوتيك ، تيمغاد ، لامبيز ، جميلة ، شرشل ، فولوبيليس ، تشير إلى احتلال لم يكن كثير العمق نحو الجنوب ؛ ولا كثير الغنى بالعناصر المهاجرة لتوطيد سيطرة دائمة ، ولكنه مدون في سلسلة من الابنية الاثرية والمدن لا مثيل لها . والواقع ، ان علم الآثار الروماني قد دُرس في اغلب الاحيان في الاطار الاقليمي ، ليس بدون سبب : في كل مكان حصل فيه احتكاك بين حضارتين ، فان علم الآثار يعكس تأثيرهـا المتبادل ؛ وهناك فروع غاليّة — رومانية ، واغريقية ، وبريطانية ، وإيبرية ، الخ . لعلم الآثار الروماني قد تبررت تاريخياً ؛ الا انه يجب الإضافة مرة أخرى ان نوعاً من الاختلال سيحدث بسبب عدم اهتمام الدول الحديثة بمناطق الحضارة التي اكتسحتها روما .

وشرعية عبارة الاركيولوجيا البيزنطية كانت موضع جدل. فكلمة « بيزنطي *Buzantin* » ليست فقط سهلة وكرّسها الاستعمال ؛ فاذا تصفحنا الامور بانتباه لرأيناها تطبق رغم كل شيء على الفن الذي ازدهر في مجموع الاراضي التي كانت تشكل ما يدعى الامبراطورية البيزنطية ، والكلمة مأخوذة من العاصمة بيزانس ، واثناء الفترة التاريخية التي تطابق وجود هذه الامبراطورية » هكذا تنتهي مقدمة الكتاب الكلاسيكي « مختصر الفن البيزنطي » لشارل ديهل . والميدان البيزنطي واسع ويشمل متنوعات محلية ، و « مدارس » لهندسة البناء او للرسم في كابادوس [1] وفي سوريا ، وفي كريت ، الخ . ولا يوجد اي

---

١ — كابادوس : بلاد في آسيا الصغرى، غربي ارمينيا .

عنصر من العناصر المسيحية والاغريقية والشرقية تحت سيطرة سياسية واحدة ، بواسطة الاختلاط .

والاركيولوجيا الاسلامية تمتد على ارض فسيحة . وقد استطاع ج . ميجون ان يكتب عام ١٩٠٧ : « مما لا يقبله عقل ان النشاط الشديد في الابحاث التي عكفت على ايضاح كثير من مشاكل علم الآثار القديم منذ خمسين سنة قد حاد عن علم الآثار الاسلامي » . ولو استرجع منذ ذاك قسم من الوقت الضائع (لقد دُرس المغرب بشكل خاص درساً متقناً) فان المهمة الواجب اتمامها تظل عظيمة . ان قسماً كبيراً من آسيا وافريقيا ينتمي الى العالم الاسلامي ، ولكن الوحدة الدينية التي تمتد من المغرب الى الهند (ولنضع الشيعية الفارسية جانباً) تخفي روايات مختلفة متعددة تحت مظهر مشترك . ولنشر إلى ان علم الآثار الاسلامي من بين جميع علوم الآثار ، هو دون شك الاكثر غنى فيما يتعلق بالفنون الصناعية . ومن ناحية اخرى فان علاقات الفن الاسلامي بالفن البيزنطي وبالفن الغربي يشكل احدى اكبر القضايا في تاريخ القرون الوسطى)[١]

وأركيولوجية القرون الوسطى تطابق اجمالاً حضارة مسيحية الغرب بمعارضتها للاركيولوجيا البيزنطية (بامكاننا الاشارة ايضاً إلى اركيولوجيا مسيحية او باليو مسيحية ، تغطي القرون الاولى من المسيحية ؛ وميدانها وحدّها الادنى يختلفان كثيراً بين دراسة واخرى) . فالمسيحية هي ، في القرون الوسطى ، واقع روحي ومادي توطد بقوة بواسطة الحروب الصليبية ، وهكذا حُملت اركيولوجية القرون الوسطى إلى قلب العالم الاسلامي في سوريا وفي فلسطين . ولكن المسيحية هي ايضاً مجزأة إلى عدد وافر من الدول لكثير منها إصالة قوية . وفكرة « كتاب موجز في الاركيولوجيا الفرنسية » (منذ الازمنة الميروفنجية حتى عصر النهضة) تأليف ك . إنلار و ج . فيربيه هي اذن مشروعة تماماً . الا ان التحقيق الذي قمنا به سابقاً عدة مرات يصلح هنا : الاطار الوطني

---

١ — « مختصر في الفن الاسلامي » تأليف ج . مارشيه و ب . ميجون .

الحديث هو تارة كثير الضيق وطوراً كثير العرض ؛ فلا حدود الفن الروماني ولا حدود الفن القوطي ، في مجموعها ، ولا في تنوعها تطابق في اغلب الاحيان حدود الدول الغربية المعاصرة .

ونشير اخيراً ، على سبيل الذكرى ، إلى الاركيولوجيا الاميركية ، حيث يوجد عنها كتاب بالفرنسية كتبه هـ . بوشا . انها تتناول جميع الحضارات السابقة لكولومبس ؛ وتشمل قسماً من عصر ما قبل التاريخ يمتد على القارة كلها ، ثم دراسة الحضارات الكبرى التي ازدهرت « في القسم الغربي من القارة الجديدة ، بين حدود جمهوريتي المكسيك والتشيلي الحالية وبالقرب من سواحل الاوقيانوس الباسيفيكي : ان الشعوب لم تتجاوز البربرية لا في مروج امريكا الشمالية ولا في سهول الارجنتين المعشوشبة » . وقد تقدمت الابحاث الاركيولوجية والاتنوغرافية عن القارة الجديدة تقدماً عظيماً منذ نشر كتاب بوشا عام ١٩١٢ .

لائحة ناقصة ، فتفصيل علم الآثار يعود إلى استعراض تاريخ البشرية منذ اصوله حتى ايامنا . وقد حاولنا ان نشير إلى بعض التقسيمات الكبرى والفروع ، ولكنها ليست مفصولة بحواجز وبالامكان التأكيد ، بدون كثير من التناقض ، ان علوم الآثار الاكثر تشويقاً هي مختلطة ؛ وقلنا ان تاريخ الاتصالات بين الاغريق والرومان يؤلف فصلاً ممتعاً من علم الآثار الكلاسيكي ؛ وكذلك التأثير المتبادل بين اليونان ومصر ، او بين اليونان والشرق الادنى ، منذ العصر المينوني حتى انتهاء عبادة الاوثان . ان كل علم آثار يستوجب تمديدات ، واهداب ومشاكل اصل واشعاع ؛ وعلم الآثار المغلق ، كالاتروسكي او الاميركي [١] ، يبعث على الحيرة (ومن هنا جاء تعدد الافتراضات التي حاولوا بواسطتها النفاذ إلى غموض الاصول) . والقمة بالنسبة لعالم الآثار كما لمؤرخ الحضارات هي اقل اغراء احياناً من الولادة أو من الانحطاط ؛ إن في تولد

١ — او كأركيولوجية جزيرة باك ، وهي حالة واضحة بقدر ما هي غير عادية .

النزعة الكلاسيكية من الجاذبية اكثر مما في الكلاسيكية نفسها ؛ ومن هنا جاء اعتبار النزعة القديمة ، في قسم منها ، على الصعيد اليوناني ، انها اكثر من نمط ، فهي تلبي الحاجة الى الفهم ، الى اتباع التطور التاريخي الذي هو نظير السببية للعلوم البشرية : طريقة ، وَهْمٌ شافٍ .

وهكذا نما ازدهار اركيولوجي مختلط [1] . ولكن الأطر التي اشرنا اليها تكشفت ، بطريقة اخرى ، انها كثيرة الضيق . والعلوم المحصاة في الفصل الاول ، والتي تشكل كثيراً من فروع علم الآثار ، تستفيد بان تُدرس لذاتها خلال علوم الآثار الخاصة . وينتمي علم المسكوكات الاغريقية إلى علم الآثار الاغريقي ، كمنطقة « افقية » محددة بالزمان والمكان ، ولكن ايضاً إلى علم المسكوكات القديمة ، كمنطقة « عمودية » محددة بموضوعها دون حدود داخلية من الزمان والمكان ، الخ . ودراسة كدراسة ب . لافيدان في كتابه « تاريخ هندسة بناء المدن في العصور القديمة والوسطى » (١٩٢٦) تظهر الفائدة التي يمكن ان يستخرجها كل علمٍ للآثار من هذه الأبحاث « العمودية » .

---

١ — ان الكتاب الحديث (١٩٣٩) الذي إلفه ا. سالان بعنوان «الرين والشرق، القرون الوسطى العليا في اللورين وفقاً للأثاث المأتمي ؛ ثلاث حقول للحفريات والمختبر » ، هو شائق جداً لانه يتناول فترة مجهولة ، ولأنه يفسح مكاناً لمشاكل طريقة البحث .

٥ أهداف وطرائق

لن نتكلم في الفصول التالية الا عن المظاهر الخارجية لعلم الآثار : تنقيب ، حفظ ونشر . ونريد هنا ، بعد التعريف النظري والعرض التاريخي الذي قادنا إلى الحالة الحاضرة ، ان نفحص الاهداف والطرائق .

بالمستطاع القول ان هذه وتلك تقتصر على الفهم . فعلم الآثار ، ككل علم ، هو في النهاية قضية ذكاء ، ولكن من الممكن ان يكون مفيداً ان نعرض ، بشكل منسق ، الاجراءات التي يضطر ان يمر بها ، طوعاً او كرهاً ، من يكرس نفسه لهذا العلم . وبعد ، فعلم الآثار – كبقية العلوم التاريخية الاخرى ، لم يعِ هذه الضرورات الا تدريجياً : فقد لزم عدة اجيال للوصول إلى نتائج تبدو لنا اليوم ذات وضوح بسيط .

ان الهدف الاول ، وهو ايضاً اول اجراء منسق ، لعالم الآثار الذي يواجه الموضوع ، هو ان يصفه . والوصف بالمعنى الكامل للكلمة هو الاحاطة الكلية ، ويتضمن المراحل اللاحقة والتفسير ، وتعيين التاريخ . ولا اتكلم هنا الا عن الوصف المحسوس الذي يتوجّه إلى الادراك فقط . ويتألف من اخذ القياسات ، والرسم ، والتصوير الشمسي ووصف الاشكال والمظاهر بالكلمات وبطريقة

واضحة بقدر الامكان . وصف احتياطي ، تقني ، ومبدئياً غير ذكي - *Non - intelligent* من الخير ان يتحفظ الذكاء في بادىء الأمر ؛ إذ يُخشى ان تفسد حيويته ونزواته واخطاؤه نزاهة الفحص وموضوعيته . فتفسير سطر بسرعة ، او حركة ، او بقعة لون ، او مكان كسر يضطر عالم الآثار إلى ان لا يراها كما هي . ولنأخذ مثلاً الفرع الاكثر « فكرية » والاقل تشكيلية في علم الآثار : علم الكتابات المنقوشة : فمن الامور المبدئية ان النسخة الاولى من نص ما يجب ان تكون غامضة ؛ وعالم الكتابات المنقوشة يباشر اولاً كما لو انه لم يفهم شيئاً من محتوى الكتابات ويكتفي بان ينقل على دفتره اشكالاً يجد انها حروف ؛ ولكي تكون نسخته مضبوطة فمما لا بد منه ان يكون قد مارس ، بشكل كاف ، الكتابة التي يجب ان ينقلها ويصفها ؛ وهذا كل شيء للمرحلة الاولى . ومن الطبيعي ان تتبعها قراءة ثانية إذا كان هناك شك ، وتكون بعد دراسة عميقة للمعنى ؛ وتأتي عين عالم الكتابات المنقوشة هذه المرة لتتفحص الافتراضات والترجمات على الحجر . وتتألف الصعوبة الكبرى لهذه الطريقة في عدة اوقات من الامساك في اللحظة الاولى بزمام الذكاء الذي يتعجل التدخل دائماً . وما يصلح لعلم الكتابات المنقوشة لا يقل صلاحه للموضوع الاركيولوجي البحت . وهنا ايضاً يجب الوصف من الخارج قبل التغلغل في معنى الأثر ونسقه . ولا يتفرغ عالم الآثار في اغلب الاحيان لمباشرة المهمة الاولى الا إذا استحوذ عليه وهم . ففي نظام تتابع الاجراءات التي يقوم بها ، فان الوصف العادي ، في الواقع ، ليس هو الوصف الاول دائماً . ولكن يظل هذا الوصف لا بد منه من الناحية المنهجية ؛ وسيلزم عند الحاجة عودة الى الوراء ، والسعي لعدم الفهم ، ونسيان ما عدا ذلك ، والوصف بشكل موضوعي . وفي تسع مرات من عشر لا يوجد صعوبة في الانتقال من هذا الوصف الموضوعي الى الوصف التفسيري ؛ واذا وُجد شك فالوصف الموضوعي هو الذي يستعمل كقاعدة ، وبفضله يمكن ذات يوم تصحيح الخطأ واكتشاف

الحقيقة [1] .

وقد سهّل التصوير الشمسي كثيراً مهمة الوصف ، ولكنه لم يبلغه . واذا جعل قيمة في بعض الاحيان لهذه التجزئة او ذلك الكتاب الذي لا يُرى جيداً على الاصل ، فانه لا يحتفظ كقاعدة عامة الا بقسم من المعطيات التي يقدمها الموضوع ذاته . وكذلك الوصف البحت ، بالرسم وبالكلمات ، يظل لا بد منه (يجب ان لا ننسى ان الرسم نفسه هو وصف وتحليل — حين لا يكون تفسيراً ؛ ويجب الحرص على وضع التصوير الشمسي والرسم على نفس المخطط . فالتصوير الشمسي وسيلة للنسخ الآلي اما الرسم فعمل ادراك ، كالوصف الشفهي) . ما أخطر الوصف غير الموضوعي ! ومن ناحية اخرى ما أصعب بلوغ الموضوعية في الوصف ! وهناك اخطاء مشهورة في حوليات علم الآثار تظهر ذلك جيداً . فقد جعل ستيوارت (ورد ذكره في الفصل الثاني) لحية لإحدى إلالهات افريز البارتنون . ونُقشت على ناووس في اللوفر جماعة آمور وبسيشه ، وهو موضوع مألوف في العصر الهيليني والروماني ؛ الساعد الايمن لآمور مكسور ، ولكن اليد التي تداعب خد بسيشه قد احتفظ بها جزئياً ؛ وفي مناسبتين في بدء القرن التاسع عشر حولت بعض الرسوم هذه اليد إلى لحية . وقد كتب فروهنر حافظ المجموعات في بيانه (١٨٦٩) : « لم يفهم نحّات ذلك الناووس تلك الجماعة ، لأن بسيشه تحمل لحية مع انها ترتدي ثوب امرأة » . وارتكب فروهنر وستيوارت اخطاء في التفسير ؛ ولا يهمنا هنا اذا كانت هذه الاخطاء مشروعة ام لا ؛ اما ما يحق لنا نقده فهو اختلاط المرحلتين الوصفية والتفسيرية ؛ فاللحية غير موجودة على الأفريز ولا على الناووس ، وقد صححت انطلاقاً من بعض الآثار ؛ ويجب ان يدل الوصف اولاً على المظهر المادي الصرف لهذه الآثار .

---

١ — هذا لا يعني ان الانطباع الاولي يجب ان يهمل ، بالعكس ، فهو يقتضي حيوية حدسية تختفي بسرعة .

والعلامة المعترضة ضرورية هنا للاشارة إلى فائدة اقل شيء من المعرفة الحرفية والتقنية لدى عالم الآثار الذي يصف الشيء ، فالنقص في كثير من اوصاف التماثيل الرخامية او البرونزية ، والتراب المشوي ، والانسجة ، الخ . يأتي من ان الذي قام بالوصف ليس معتاداً على التقنية الملائمة . وقد تحقق تقدم كبير منذ بضع سنوات في هذا الاتجاه ، وكتاب س . كاسون « تقنية فن النحت الاغريقي القديم » (١٩٣٣) . والمناقشات التي اثارها تشير إلى الاهمية المنسوبة اليوم الى هذه المسائل . وقد كتب لك . كاوج كتاباً مماثلاً حول آثار صانعي البرونز . والادلة التقنية قيمة ايضاً لأجل تعيين التاريخ وسنتكلم حالاً عن ذلك .

ان هدف الوصف الموضوعي هو الاحتفاظ بالمعطيات المادية للشيء وعدم الاحتفاظ بغيرها . ثم يأتي التفسير او الشرح بعد ذلك . ويستوجب درجتين على الاقل ، انه تفسير حين نقول : ان التمزق على وجه صورة الناووس هو اثر يد (او لحية) ، وهذا تفسير من الدرجة الثانية حين نضيف : الصورة الموشاة اسمها بسيشه وتشكل مجموعة مع آمور . وهناك كتاب جيد بالالمانية حول البيانات المصورة عن العصور القديمة الكلاسيكية عنوانه : « علم التفسير الاركيولوجي » تأليف كارل روبير ظهر عام ١٩١٩ . ولكنه لا يحتوي على طريقة . اذا تكلمنا بدقة . لانه ليس . ولا يمكن ان يكون . سوى تتمة ملاحظات . علمية جداً . حول عدد من الآثار . مجموعة في بضعة فصول . وتقدم فكرة صحيحة عن المصادر التي استعملت في تفسير الأبنية الاثرية الاغريقية – الرومانية : « النظر . الرسم . الوصف » ، « تحديد هوية الوجوه » « التفسير وفقاً للصورة وحدها » . « بمساعده الاسطورة » . « – بمساعدة الادب » . « – بمساعدة الآثار الفنية الاخرى » . الخ . ان اثباتات كارل روبير والامثلة التي اعطاها مفيدة جداً لعلماء الآثار . ولكن من الناحية العملية الى ماذا يعود التفسير ؟ انه يتطلب كثيراً من العلم ويلجأ الى تلك الخاصة في العقل التي ندعوها الذكاء . والتي تتألف . في سلسلة من التقارب وتوارد

الافكار ، من ايجاد واختيار مجموع المعطيات التي تسمح بحل مشكلة . ليس هناك « وصفات » تفسيرية ؛ ولكن تجارب الغير . وخصوصاً التجارب الخاسرة تستطيع بكل بساطة ان تدلنا او ان تحذّرنا . ان كلاً منا يباشر التفسير بوسائل مختلفة ، وفي كل مرة نستعمل بصيرتنا كلها . هناك حقل منحوتات [١] شهير في معبد سيلينونت [٢] . عُرف فيه زوس وهيرا يلتقيان على الإيدا *Ida* [٣] وفقاً للقصة التي وردت في الالياذة ؛ وينسخ كارل روبير حقل المنحوتات هذا ويعتمد على التفسير التقليدي – المعتبر غير قابل للجدل – لإلقاء النور على افريز البارتنون . الا ان هناك تفسيراً آخر قد اقترح حديثاً (ش. بيكار) : ان حقل المنحوتـــات يمثل هاديس [٤] *Hades* وبرسيفون [٥] *Persephone* ؛ وهكذا حذفت صعوبات خطيرة . وضعف الحجج المثارة سابقـــاً اصبح ظاهراً .

وأحد فصول كارل روبير الاكثر غرابة هو الفصل المتعلق بمصادر الاخطاء ولكنه ذو فائدة تاريخية . « ان علماء الآثار » الرومانيين حتى القرن الثامن عشر فسروا جميع الصور كأنها متعلقة بالتاريخ وبالاسطورة الرومانية ؛ وهناك مشهد من الناووس يصور أشيل بين بنات ليكوميد . اصبح بنظرهم مشهد اختطاف نساء وبنات سابين . الخ . لقد انتقلت اليونان الى المخطط الاول مع ونكلمان وزوغا (دانيمركي توفي عام ١٨٠٩) . ولكن الاثر الفني يستوجب تفسيراً دينياً عميقاً بنظر المدرسة الجديدة ؛ وأحدثت الافراطات في هذا التفسير حوالي القرن التاسع عشر رد فعل في اتجاه الفن للفن . ونعود اليوم الى نظرة اكثر اتزاناً : ان الرسوم الميثولوجية البحتة والمشاهد التي من هذا النوع كثيرة

---

١ – حقل منحوتات *Metope* : فسحة فاصلة بين واجهتين في افريز مزدانة بصور منحوتة .ق
٢ – سيلينونت *Sélinonte* : مدينة في صقلية فيها خرائب معابد اغريقية .
٣ – اسم لجبلين : الاول في [illegible] (آسيا الصغرى) بجوار طروادة والثاني في جزيرة كريت .
٤ - إله الجحيم في الميثولوجيا الاغريقية .
٥ – برسيفون : إلهة اغريقية ابنة ديمتر وزوس ، وملكة الجحيم .

في النحت الهيليني . وقبلاً في سيراميك القرنين الخامس والرابع ؛ وما من احد يفكر بان الآنية الاغريقية او الايتاليوتية [1] والتي ظلوا وقتاً طويلاً يريدون ان يجدوا عليها آثار عبادات غامضة . كان لها معنى رمزي ؛ ولكن دراسة اكثر تفصيلاً للعبادات الهيلينية . وخصوصاً للعبادات المحلية ، سمحت بتجديد التفسير لكثير من الأبنية الاثرية . ليس في العصر الكلاسيكي فقط ، بل خلال الجاهلية الاغريقية — الرومانية كلها . وكتاب روبير قد تُخطي الآن من هذه الناحية .

وليس من المبالغة القول . كما فعلنا . ان تفسير اثر يحرك كل معرفتنا عن الحضارة التي ينتمي اليها . « في ٢٣ نيسان ١٩١٧ . في روما وعلى بعد مئة متر الى الشرق من الباب الكبير . انهارت الارض تحت خط سكة حديد روما — نابولي » : وقد ادّى هذا الى اكتشاف بازيليك [2] حاول ج . كركوبينو في دراسة كلاسيكية ان يثبت هويته انه فيثاغوري ؛ لنقرأ كتابه من جديد ولنجل الطرف في الملاحظات وفي الفهارس الملحقة به ، فسيتأكد لنا شمول النظرات والغنى بالمعرفة التي تتضمنها برهنة من هذا النوع .

وملاحظة مصيبة بسيطة لن تكون هنا في غير موضعها (فالحقائق تصلح لتقال من جديد) : لا يوجد تخمين في التفسير ؛ ولا يستطيع عالم الآثار ان يسير الا من المعلوم الى المجهول ؛ والمقصود اذن بالنسبة اليه ان يجمع الاعمال ويصنفها ويؤسس قاعدة متينة.ويجب ان تبقى الروح الناقدة في حالة يقظة ، في كل لحظة . اثناء البحث والاستقصاء . وعند الانطلاق يجب الا تُقبل سوى الحقائق المقررة . او على الاقل قريبة جداً من اليقين الممكن في العلوم المسماة علوم الانسان . والحق ان إرثاً طويلاً من المعرفة يثقل علينا ، وفي الغالب من المعرفة المقلّدة . ويجب اولاً هزها وإمرارها على غربال فحص لا يرحم .

---

١ — الايتاليوت *Les Italiotes* : سكان ايطاليا الوسطى البدائيون .

٢ — بازيليك : مبنى روماني مستطيل في احد طرفيه جزء ناتىء نصف دائري .

اما الى اية درجة تقدم هاتان المهمتان – الوصف والشرح – صعوبات وأشراكاً فهذا ما نتأكد منه منذ ان نلجأ الى المصادر الادبية في علم الآثار ومنذ ان نلتفت نحو الكتّاب القدامى بدلاً من التوجه الى الاثر ذاته . فهناك كتاب لا غنى عنه ايضاً من تألف ج . اوفريك (١٨٦٨) جمع نصوصهم المتعلقة بالنحت ، وجمع ا . ريناخ من ناحيته « النصوص الاغريقية واللاتينية المتعلقة بتاريخ الرسم القديم » (١٩٢١) . ولوصف مفصل كم هناك من دلالات مبهمة واحكام عاجلة ! .. الانطباعية ذات الميل الادبي والاخلاقي . هذا هو الموقف الاكثر تواتراً والكثير الشبه بموقف نقاد فن القرن الثامن عشر . وفي الغالب القرن التاسع عشر ايضاً ، امام معاصريهم . وللضبط في الايجاز نذكر كنموذج ، ولكن ايضاً كشذوذ ، هذه العبارة التي قالها لوسيان عن ديسكوبول ميرون [١] : « قاذف القرص منحن في الوضعية التي تسبق عملية القذف ، والجسم ملتفت الى جهة اليد الممسكة بالقرص ، ومنطو دون تصلب على الركبة الاخرى ، ومستعد ليعتدل عند القيام باللعبة » ؛ ويجب ان نضيف ، بدون انكار مواهب لوسيان ، ان المهمة كانت هنا اكثر سهولة منها في كثير من الصور الأقل نموذجية .

والأهمية التي اتخذتها منذ القرن الثامن عشر عناصر التقدم (بالمعنى الاكثر حياداً) والتطور ، والتأثير ، وردة الفعل ، والدورة . الخ . توضح ان هدفاً آخر من اهداف علم الآثار قد وُجد . فعلم الآثار (الاركيولوجيا) ليس وصفياً تفسيرياً فقط ، انه تاريخي . والبناء الأثري والوثيقة لا يأخذان قيمتهما الحقيقية الا اذا اوصلناهما الى مكانهما الصحيح ، في سلسلة الانماط والتقنيات. وعمل كهذا يفتح الطريق او لا يكون سوى نسخة تافهة وفقاً لوضعه بعد عشر او عشرين سنة او قبل عشر او عشرين سنة . وبالإمكان مضاعفة الامثلة ، اللاذعة في الغالب ، من الاخطاء والتفاوت في تعيين تاريخ الآثار الشهيرة ؛

١ – ديسكوبول *Discobole* : تمثال قديم لميرون يوجد منه عدة نسخ .

وهكذا تنزهت فينوس ميلو بين نهاية القرن الخامس حتى العصر الروماني . ودراسات ستريغوفهسكي العظيمة عن سوريا وعن العلاقات بين روما والشرق، بين الشمال والجنوب ، تتوقف الى حد كبير على التاريخ الموضوع لأثرين : كأس انطاكية الفضي ، وواجهــة المشاتا *Mschatta* اللذين بلغت التقديرات عنهما فرق خمسة قرون .

الدلائل التاريخية المتسلسلة ؟ .. كل فئة من الحفريات والاشياء يجب ان تفحص على حدة ، وتكون المشاكل مختلفة تمام الاختلاف حسبما يكون الامر متعلقاً بشقفة خزفية تعود الى ما قبل التاريخ ، وتاريخها غير مؤكد لما يقارب عدة قرون ، او بتمثال اغريقي من النصف الاول من القرن الخامس ، ويكون الخلاف في تاريخه يتناول بضع سنوات فقط . ومع ذلك فلنشر الى اهمية الحفريات الستراتيغرافية لأجل تحديد تسلسل تاريخي نسبي ؛ ومن ناحية اخرى فان بعض التزامنات التأريخية [1] تحمل تواريخ مطلقة : مثلاً لقية اشيــاء مصرية في كريت قدمت نقاط استدلال للاركيولوجيا المينونية ؛ فالكتابات المنقوشة تحتوي في الغالب على تواريخ أكيدة وبهذا تتيح الدقة المتناهية (الشهر واليوم) ؛ وتقدم المظاهر التقنية (طبيعة المواد المستعملة ، الآلات ، الخ ،) ملاحظات مفيدة ، ويوجد على صعيد تعيين التاريخ افراط وطرق يتبعها ردود فعل . « بعد ان قاس العالم الماني ا. كالكمان (في نهاية القرن التاسع عشر) الوجه والجذع لعدة تماثيل — هي نسخ بشكل رئيسي — قال انه وجد في هذه القياسات وسيلة اكيدة وسهلة لتعيين تاريخ جميع الآثار الاغريقية ... واثناء بضع سنوات ارفق كل وصف ،اجبارياً ، بلائحة ارقام . وقد صنع البركار والسنتيمتر آنذاك اعاجيب غير متوقعة » (ش. بيكار) .

ومع ذلك فان علم الآثار لم يتكون من آثار منعزلة ؛ فقيمته لا تظهر كلها

---

١ — التزامنات التاريخية *Les Synchronismes* : المقصود بها حدوث اشياء في وقت وزمن واحد او اتفاق التواريخ في حياة الشعوب .

الا بدرس المجموعات ؛ وفيما وراء الوصف ، والتفسير ؛ وتعيين التاريخ ، بواسطة محاولات تركيبية . وليس للاسلوب مكان هنا . فقد ترك مواهب عالم الآثار ومطامحه تسير امامه . وما دمنا قد ذكرنا اسم ستريغوفسكي فلنلخص هنا المراحل المتتابعة لعمل المؤرخ النمساوي وفقاً لرأي ج. ميليه وب. لومرل : « روما التي ليست سوى قوة . وليست مركزاً مبدعاً ؛ الشرق الميليني ؛ هضبة الاناضول والمناطق القريبة من بلاد ما بين النهرين . واميدا ومشاتاّ ؛ هضبة ايران التي بلغها من خلال ارمينيا وبواسطة دورة تركستان الصينية . وحيث يكتشف الرمزين الكبيرين اللذين هما الفن المقدس والمنظر الطبيعي . واخيراً آخر مرحلة. الفن العضوي لبلدان الشمال ولبدو سيتيا *Scythie* وآسيا العليا وبسيبريا. وبوصوله الى هذا الحد ضم في شميلة *synthèse* واسعة كل ميدان الفن ؛ حيث ميز ثلاث مناطق حسب تعبيره : فن بلدان الجنوب ؛ منطقة خط الاستواء الحارة التي هي الاكثر قدماً . يمثل الصور المنفردة من حيوانات وبشر . ومن البلدان الباردة الشمالية . حيث تأتي المزدكية ايضاً . وتأتي معها الرموز المزدكية كالمنظر الطبيعي . هو فن معادٍ للصورة البشرية ويعبر عن نفسه في زينة الملابس . والخيمة . والبيت ؛ وفن المنطقة الوسطى — البحر المتوسط . سوريا . بلاد ما بين النهرين . الهند — هو فن « قوة » يخضع للطلب منسقاً جميع الحوافز . حوافز الشمال وحوافز الجنوب ليضعها في خدمة مجد الامير » .

يمكن ان تبدو تطورات كهذه سريعة العطب . ومعظم علماء الآثار وهم اكثر حكمة ، لم يدّعوا الاحاطة بسائر الخلق الفني خلال تاريخ البشرية . ولكن جميع التحاليل تستدعي شميلة تجمعها . فهي تحمل مواد لا تأخذ جسداً وحياة الا اذا جُمعت . وعلى كل فرد . في هذا الجهد الضروري للبناء . ان يقيس قواه ويجعلها مناسبة لجهده .

٦ الاكتشاف : الحفريات

العنصر الدرامي في الحفر ، بنظر الدنيوي منتهك الحرمات ، هو الاكتشاف. فالطرفة المدفونة منذ آلاف السنين تعود الى الظهور في نور النهار ، وعالم الآثار هو الاول الذي يكتشف الشكل الرائع ويعجب به ، بعد كثير من الاجيال . وهذه هي المكافأة الباهرة النادرة للمنقب ؛ ومن وجهة النظر العلمية فان المأساة الحقيقية ليست هنا . فهي كامنة في ان التنقيب عمل وحيد ، عمل لا يمكن البدء به من جديد بنفس الشروط .فمن نقطة معطاة محددة : مؤسسات بشرية ثم الاعوام ، والرمال ، والمطر ، والريح ، والحروب ، والتخريبات المنسوبة الى ايدي اجيال بشرية اخرى ، تؤلف كلها مجموعة من الخرائب ، وجميع مراحل التاريخ مسجلة فيها بكثير من الافعال ، بكثير من العلامات التي يأمل عالم الآثار ، بكثير من الحيطة ان يحل رموزها جزئياً . والحق ان المعول يخرب والحفر يعني تخريب عمل العصور قطعة قطعة للوصول الى الارض البكر . والآثار المعمارية وحدها تتفلت من هذه البلبلة وتبقى ثابتة ، الا اذا ضُحي بأبنية لاحقة لتخليص مبنى يعتبر اكثر اثارة للاهتمام . والمثل الاكثر ميزة والاكثر شهرة هو البارتنون : فلإيجاد طُرَف إيكتينوس وفيدياس الفنية وجب إزالة المباني الطارئة من فرنكية واسلامية ؛ ومن هنا جاء نقد باريس *Barrès* الظالم والسهل في كتابه « رحلة سبارطة » .

ولكننا سنجد هذه المشكلة في الفصل المختص بالحفظ ، وكذلك مشكلة الآثار المتواضعة ، والقبور ، والجدران ، الخ ، والتي لا تقاوم اذا تعرضت للهواء الحر بعد ان وقيت بواسطة الزمن . اما المأساة الخاصة بالتنقيب فهذه هي : ان اقل حجر ، اقل اناء ، اقل قطعة نقود تعطي ، او يمكن ان تعطي دلالةً ، وفقاً للمكان المعين الذي توجد فيه ، ومع ذلك يجب تغيير مكانها ، ورفعها ، ونقلها الى متحف . وبهذا العمل يخرب المنقب كل مرة دليلاً ؛ ثم اذا كان هو غير قادر على الاستفادة من ذلك فمن يدرب اذ لم يكن هناك عالم آثار آخر يستطيع تفسيرها ذات يوم اذا توفرت لديه المعلومات ؟

وعلاج ذلك ان تدار عملية الحفر بكثير من الحذر بحيث يصبح بالامكان اعادة المسير والتفصيلات في كل لحظة فيما بعد . وعلى المنقب المدقق ان يثبت بقدر الامكان جميع مراحل بحثه بواسطة الكتابة ، والرسم ، والتصوير الشمسي ؛ ويجب ان تكون الدفاتر ولوائح الحفريات كاملة بقدر الامكان فتسجل كمية من التفاصيل التي تبدو في الظاهر غير مفيدة ولكن يمكن بفضلها صياغة او دعم تفسير او تصنيف فيما بعد ، وتعيين تاريخ توحي به اشغال اخرى . والمقصود هنا هدف يصعب بلوغه ، ومن الوجهة النظرية فان المسعى الكامل هو الآتي :

١ً – حفر يدار بحيطة بالغة ، وبدقة ميكانيكية ، دون فكرة مسبقة ، دون تفسير عاجل ؛ وهذه الطريقة ، بشكلها النهائي ، ستتألف من نبش الارض طبقة بعد طبقة (من ١٠ الى ٣٠ سم ، وفقاً لطبيعة الحفريات) ووصف كل مرحلة بتفصيل ؛ اذن الا تحدد منذ البدء سلسلة من الطبقات التاريخية بواسطة الاستبار ، والتي سيُبذل الجهد بعد ذلك للتخلص منها واحدة واحدة بالرغم من تنوع السماكة والفرق في ارتفاع الأرض . والواقع ان هذه الطريقة النهائية المعمول بها في الاماكن الصعبة حيث لا يمكن الرؤية جيداً ، وحيث حدثت الانقلابات في الاعماق مرة بعد مرة وخلطت جزئياً بين الطبقات ، لم تكن تُطبق الا في حالة استثنائية (كما في ببيلوس – جبيل بواسطة دونان) .

٢ً — امساك دفتر للحفريات ساعة بعد ساعة او دفاتر بقدر وجود مشاغل وقطاعات، وتوقف الاعمال (لبضع لحظات او لبضعة ايام) مألوف ايضاً بقدر ما هو ضروريا لاجل التصوير والرسم وتعديل المخططات؛ دمج اسبوعي لدفاتر الحفريات في دفتر واحد.

٣ً — انتهاء الحفر، انشاء سجلات لحفظ الوثائق (ارشيف) تحتوي على مفكرات، دفتر، لوائح، وصور، ونشرة، في قسمين: قسم آلي الى حد ما، يعكس عند تلخيصه سير الاعمال، والآخر يشتمل على تفسيرات المنقب الشخصية.

بهذا فقط يمكن للحفر الا يبقى ما كانه منذ وقت طويل في كثير من الخرائب: الكارثة البالغة التي تحمل الضربة الاخيرة للخرائب. في القرن الثامن عشر (في هركولانوم مثلاً) وفي القسم الاكبر من القرن التاسع عشر ايضاً، كان رجل الآثار يركض وراء الشيء — تمثال، نتوء، نقش — بجشع الباحثين سراً عن كنوز الذهب والحلى. وكم تعرضت المشاغل الاركيولوجية للخطر بشكل لاشفاء منه بسبب هذا المفهوم البسيط! وقد قيل: حفريات خنزير بري. وقد اصبح عالم الآثار اكثر طمعاً في غايته، واكثر وسواساً في التدقيق واكثر بساطة في مسعاه: انه يصبوا الى اعادة بناء مدنيات في نظامها التسلسلي التاريخي، ولا يهمل اي دليل.

كيف تجري الامور عملياً؟ يبدو اكثر فأكثر ان المال هو عصب علم الآثار. فالتنقيب والنشر وفقاً للاساليب الحديثة يكلفان غالياً، وكثير من البعثات الفرنسية في هذا النصف الاخير من القرن قد جهزت بوسائل غير كافية. وكانت بلدان اخرى تضع تحت تصرف علماء آثارها مبالغ عظيمة؛ وهذه على الخصوص حالة الولايات المتحدة التي اصبح نشاطها عظيماً في مصر والشرق الادنى واليونان وفي كل مكان (حفريات قرطاجة، كلوني).

حين يكون الحفر بعيداً عن اي مركز سكن او على مقربة من قرى لا تتلاءم

مع العادات « الغربية » في الراحة والصحة ، فما لا بد منه ان تبني البعثة بيتاً . فالعمل تحت الخيمة لا يجدي ، ويضيع الوقت في حل جميع انواع المشاكل العملية التي تلاقيها الاقامة الثابتة . ومع ذلك فمعظم الحفريات تمتد الى عـدة فصول ، وهذا ما يبرر وجود البناء الثابت (تجري الاقامة احياناً في بيوت من خشب قابلة للتفكيك) . ومسألة التمون بالاغذية والماء يجب ان يُحتاط لها في وقتها . ويجد عالم الآثار ان عليه حل مشاكل مماثلة للمشاكل التي تجابه الرائد، ولكن بشكل مخفف .

اي رجال يجب ان يشتركوا في البعثة ؟ باستثناء عالم الآثار الذي يديرها والذي يمكن ان يكون هو نفسه متخصصاً في احد العلوم التي تؤلف علم الآثار ، من المهم ان تشتمل على اعضاء كافين لمراقبة عملية الحفر ، واختصاصيين كافين ليصبح من الممكن القيام بوصف ودراسة إوليين في مكان العمل ، ويمكن ان يكون اشتراكهم ضرورياً في كل لحظة ؛ ومهما كان سير التنقيب آلياً فهو ليس مستقلاً عن المكتشفات؛ لان هذه يمكن ان تفرض تغييراً في الطريقة احياناً : ظهور شذرات من الحلي او النقود يمكن ان يفضي الى غربلة الانقاض في نقطة لا تبدو فيها هذه الحيطة انها تفرض نفسها، الخ . (يجب الا يقوم رئيس العمال بأية مبادهة دون الرجوع الى احد اعضاء البعثة) . والمهندس المعماري او المهندسون المعماريون الذين يرافقون البعثة يجب ان يكونوا حائزين على معلومات تاريخية بقدر الامكان ويهتمون بالاكتشافات كخبراء بقدر ما هم فنيون . ومن بين التفصيلات المادية التي تشكل اهمية كبرى نذكر التجهيز المخصص لتطوير وسحب الصور (من الضرورة التأكد كل مرة انها كافية قبل متابعة الحفر) . ولا غنى عن صيدلية ريفية ؛ وكتب علم الآثار لا تهمل هذه المسائل (وأحدثها عهداً قد نشر تحت ادارة والتر اوتو) .

وقد اجتمع مؤتمر دولي يتعلق بالحفريات في القاهرة ، في اذار ۱۹۳۷ ، ونُشر من التقارير التي قُدمت اليه كتاب بعنوان « تقنية الحفريات » ، وذلك

عام ١٩٣٧ . وهذا الكتاب يشكل جزءاً من مجموعة مجلة« موزيون Mouseion » ألحقت به بعض المقالات التي ظهرت في السنة التالية في نفس المجلة . امـــا البيان الذي عقب ذلك فقد استعار كثيراً منه .

والمراجع التمهيدية تقضي على المنقب ان يحيط نفسه بمعطيات كاملة بقدر الامكان عن تاريخ الموضع الذي يريد سبره واستثماره . وتقدم التقاليد المحلية معطيات ثمينة احياناً ، ولكن من المهم اخضاعها لنقد صارم ؛ وهنالك بعـــض اسماء كاسحة . فلا سيادة لقبر اغاممنون في ميسين ، ولا لهضبة هذا الملك نفسه في دلفس ، ولا لقبور باتروقل وآجاكس او بروتيسيلاس (اسماء تطلق على مدافن ما قبل التاريخ في منطقة طروادة) ، ولا مصباح ديموستين في اثينا. ان للجغرافيا دوراً تلعبـــه في البحث عن الحفر : ان لوتيرموبيل [1] Les Thermopyle ، احد الاماكن الاكثر شهرة في اليونان القديمة ، جعله طمي سبرشيوس غير معروف .

المقصود من ارتياد موقع اثري هو تحديد الحقل الصالح للحفر بأكثر ما يمكن من الضبط . وحين تكون الآثار ظاهرة غير واضحة تماماً (خرائب كخرائب جرش Gerasa في شرقي الاردن ، ولبتيس او تيمغاد في افريقيـــا الشمالية ، الخ . ، تقرأ دون جهد) ، والتنقيب عن السيراميك ذو اهمية اولية. فجميع المدنيات الحضرية تقريباً عرفت آنية الطين المشوي . «يسمح جمـــع شقف الآنية الخزفية الملتقطة عن وجه الارض ليس بكشف موضع اثري قديم فقط ، ولكنه يقدم (قبل اي تنقيب منهجي) دلالات قيمة حول التاريخ ، او التواريخ التي كان فيها هذا الموضع مسكوناً .. والتطبيق الجدير بالملاحظة حول التنقيب عن السيراميك هو ذلك الذي طبقته في شرق الاردن المدرســـة الاركيولوجية الاميركية في القدس .. : فقد اكتُشف ٧٥ موقعاً » . ويمكن

---

١ — مضيق مشهور في تساليا بين جبلي آنوبيه Anopée وخليج مالباك ، حيث حاول ليونيداس ، مع ثلاثماية من سبارطة ، ايقاف جيش اكزركسيس Xerxès .

الشروع بعمليات السبر لاجل التقيب ، ولكن بحذر اذ يُخشى حدوث نتائج سيئة في الحفريات الدقيقـة ، بقلب او بتخريب بعض اجزاء من الموقـع ؛ ومقابل ذلك فان عمليات سبر الاغوار هذه لاغنى عنها في المكان المفترض انه بدون فائدة وحيث تنوي البعثة نقل أتربة الانقاض. اما الاستدلال بالصوت فكان مستعملاً في بعض الاحيان لاكتشاف القبور بواسطة رنين الفجوة . واعطت المراقبة الجوية نتائج باهرةجداً؛ واصبح استعمالها عادياً بعد ان استعملت منذ حرب ١٩١٤ – ١٩١٨في الابحاث الأثرية في مقدونيا وفلسطين . واستعملها ب. بوادیبار بطريقة منظمة في تنقيباته عن خط الدفاع (١) السوري . امـا التنوير الشديد صباحاً ومساءً ، وأثناء ساعات الظهيرة ذات النور الشديد ، والانوار المعاكسة ، فقد اعطت نتائج غير عادية : معسكر تل الصوان على خط الدفاع الروماني في شمالي الفرات ، والذي لا يرى تقريباً عن الارض اظهر على الصور الشمسية المأخوذة من الجو مربعه شبه الكامل ، والصور المأخوذة من الجو اتاحت وحدها ايجاد طريق القوافل القديم بين تدمر وهيت *Hit* في رتابة الصحراء السورية ، واستعمل ب . بوادیبار الطريقة ذاتها في افريقيا الشمالية وللدراسة مرافيء سوريا . واصبح استعمالها دارجاً ، واصبح التصوير الجوي الآن جزءاً ليس من طريقة الارتياد فقط ، بل من كل ما ينشر عـن الحفريـات الهامة . واخيراً فان التصوير المسامي الضوئي (٢) « *Photogrammétric* يسمح باعادة رسم مخطط صُوّر من الجو وذلك وفقاً لمقياس معين » .

واهتم مؤتمر القاهرة ايضاً بالتنظيم المادي للحفريات . وقد قلنا بعض الكلمات عن ذلك ولا نستطيع التفكير بالدخول في تفاصيل المسائل القضائية والادارية والعملية ، الخ . التي تعرض للمنقب . ومشكلة اليد العاملة صعبة الحل في

١ – *Le Limes* : يعني في الاصل خط دفاعي قرره الرومان على جميع حدود الامبراطورية .

٢ – تعريب الكلمة للدكتورين ادريس وعبد النور في معجمهما ،اما المعنى الاصلي للكلمة فهو درس الطرق التي تسمح بقياس ابعاد الاشياء التي صورت ، وذلك من رؤية الصورة . المترجم

الغالب ، وتجنّد من ناحية عامة في مكان العمل ، ولكن قد يكون من الضروري الاستعانة برؤساء عمال ذوي خبرة آتين من بعيد . وها نحن نعطي ، كمثل ، لائحة بالموظفين الذين يعملون في حفريات بومبي ، وهي حفريات معقدة بشكل استثنائي ودقيقة ، الا انها اصبحت قريبة من الاتقان بعد تحسسات طويلة ويجب القول ، واعادة القول ، انه ما من شيء اشد خطراً من حفريات يديرها موظفون غير أكفاء بالعدد وبالجدارة :

« ١ً — مدير الاشغال .

« ٢ً — مدير معاون .

« أ — فرقة عمال مكلفة بالحفريات : رئيس فرقة ، حفارون ، ساحبون ، حاملو سلال ، اعمال جرت في ديكوفيل .

« ب — فرقة تنظيف تزيل النباتات من الشوارع ومن داخل المساكن .

« ج — فرقة بنائين مع معاوينهم ، يكلفون بأعمال الصيانة العادية ، والدعم ، والترميم ، تحت رقابة المدير المباشرة .

« د — فرقة من المجصصين مكلفة بترميم وصيانة الجدران والجص .

« هـ — فرقة حافظي الرسوم والفسيفساء .

« و — حدادون وبنّاؤن .

« ز — حارس مخزن يراقب المستودع ورفع المعدات من المشغل .

« ح — فنيون للترميم ولإكمال ماكيت بومبي البلاستيكية .

« ط — رسامون ومصورون .

« ي — مساعد لكتابة دفتر الحفريات ودفتر الاشغال .

« ك — اشخاص مكلفون بتدوين الاشياء في لائحة الجردة الصغيرة ونقلها اما الى المستودعات واما ، في قسم منها الى الأبنية التي جاءت منها ، والأشياء الاخرى الى متحف اثار بومبي » .

وتتنوع الطرق الفنية للتنقيب مع كل موقع ، ولكن بالامكان عرض مبدأين على الاقل :

١ ً – يجب ان يكون الحفر وفقاً لعلم طبقات الارض .
٢ ً – يجب ان لا يتوقف الا في الارض البكر .

والمبدأ الثاني بسيط . ومع ذلك يمكن ان يكون من الصعب معرفة الارض البكر احياناً : يكسب الزمن منظر طبقة جيولوجية احياناً لأراض منتجة او اراض قد شُغلت ؛ ومن ناحية اخرى يمكن ان تتكون مستودعات طبيعية على بناء بشري مهجور ، وبعد عدة قرون تقوم حضارة جديدة على هذه الطبقة ، انها حالات نوعية يجب ان يكون المنقب منها على حذر . ولكن عدا ذلك ، وبطريقة عامة . فقد وجب ان تعاد جميع الحفريات الكلاسيكية في القرن التاسع عشر تقريباً ، لان علماء الآثار آنذاك لم يكونوا يهتمون باستخراج فائدة وتاريخ موقع : كانوا يهتمون بالفترة التي تشوقهم بشكل خاص، الفترة الاغريقية – الرومانية ، ولا يسيرون الى ما دون ذلك .

والطريقة الستراتيغرافية (وفقاً لعلم طبقات الارض) هي الاكتشاف الكبير في هذه العشرات الاخيرة من السنوات . فهي ذات اصـــل جيولوجي وباليونتولوجي [١] وبذرتها موجودة في حفريات التاريخ القديم منذ خطواتها الاولى لأن معرفة الطبقة الجيولوجية جوهرية في ذلك، ولكنها تطورت شيئاً فشيئاً ، وقبل كل شيء في حفريات ما قبل التاريخ . وقد حاول عالم الآثـــار المصري او الهيليني مهاجمة المعبد او القبر من تلقاء نفسه على امل ان يكتشف طرفة فنية؛ وحقارة معظم الحفريات العائدة لما قبل التاريخ فرضت عليهما كثيراً من الحيطة: فاللقى في معظم الاحيان هي بدون قيمة كبيرة كأشياء ؛ وبعكس ذلك فأن تسلسلها التاريخي وتجمعها يسمحان بتحديد تواريخ وعصور الحضارة . « تتطلب الطريقة الستراتيغرافية التطبيق الاكثر شدة والاكثر دقة حين يتعلق الامر بمناطق تعود الى ما قبل التاريخ سواء اكانت تحت السماء او في المغاور ، في اماكن جافة او في اماكن سبخة او على ضفاف البحيرات ،

---

١ – علم انواع مطمورات الارض من نبات وغيره .

حين يكون الامر ممكنا . وفي هذه الحالة يجب ان يستمر الحفر حتّى الاستنفاد الكامل للطبقة الاركيولوجية العائدة للعهد الرابع المتعلق بظهور الانسان، دون ان يكون بالامكان مراقبة او مراجعة المعطيات ؛ وفضلاً عن ذلك ، فحين يظهر اكبر شك ، واكبر النواقص خطورة ، والآراء الكثيرة التناقض ايضاً فيما يتعلق بالتطور وبتيارات مختلف مراحل المدنية في بعض المناطق ، فان جميع هذه الظروف تفرض على العالم بالاعراق البشرية في عصر ما قبل التاريخ *Le Palethnologue* إعـــداداً قاسياً وشعوراً حيـــاً بمسؤوليته ، والمراقبة الاكثر دقة للاشغال ، واذا توصل الى ذلك ، فتحررٌ من نظرياته الخاصة التي تصورها مسبقاً » .

وفرض الحفر نفسه وفقاً لعلم طبقات الارض (الستراتيغرافي) بسرعة في جميع الميادين . ولا نرى اليوم علماء آثار يعملون بطريقة التنقيبات الكبيرة والعميقة بحثاً عن الرخام او عن البرونز . فقد اصبح الحفر كعملية تنظيف تدريجي للارض حتّى الوصول الى التراب البكر . ولكن هذا المبدأ يكون في اغلب الاحيان ذا تطبيق دقيق . فهو لا يلعب بكل قوته الا اذا كانت الطبقات المختلفة المطابقة لاماكن السكن المتتابعة تحتوي على اشياء قابلة للتحريك فقط . وما ان يوجد اثر مثبت في الارض ، من احقر هيكل او قبر الى اكبر معبد ، حتّى تتعقد المشكلة ؛ وبالفعل ، ودون اتلاف شيء ، يجب فحص اسس البناء من جميع النواحي ، واكتشاف مستودعات الاساس التذكارية والمقدسة ، والسير اخيراً حتّى الطبقات الاثرية الاكثر قدماً والمدفونة تحت البناء الاثري.

ولنشر على الاقل ، من بين الحالات الخاصة ، الى حالة حفريات المدن مثل اوستي ، وبومبيي وهركولانوم ، حيث « احتُفظ بالبنيان على ارتفاع معين . وحتى لو اكتُشفت الاجزاء المرتفعة من بناء ، والطوابق العليا من بيت ، والاروقة الخارجية والشرفات البارزة ، وهي في حالة الخراب ، على وشك الانهيار او في اوضاع هي في اقصى حدود عدم الاستقرار ، فبالامكان التوصل ،

بفضل طريقة الاستكشاف بواسطة الطبقات الافقية ، الى معرفة ، واعـادة تركيب ، واعادة وضع عناصر الدعم والزخرفة والبناء ، في اماكنها الاولية ، تلك العناصر التي كان من الممكن ان تضيع نهائياً وتختلط بالتراب المرفوع ، وذلك بطريقة الحفر القديمة بقطاعات عمودية .

ولم تحلّ الطريقة الستراتيغرافية كل المشاكل ، ولتأديتها يجب ان يحسب حساب الطوارىء الممكنة دائماً : فقد حدثت هذه الطوارىء خلال العصور (تدخل كيفي لفرد او جماعة) ، وحتى اثناء الحفر يمكن وقوع اهمال يكفي لمزج شقف خزفية تنتمي الى طبقتين مختلفتين . وفي المناطق التي كانت مسكونة طوال عدة قرون وقلبتها الحفريات السرية او الحرقاء (كالفوروم في روما والآغورا في اثينا) فان الطريقة الستراتيغرافية لا يمكن ان تعطي نتائج مطلقة .

وهناك فئة خاصة من الحفريات تتعلق بالمواضع الواقعة على ضفاف الماء وبوجه عام بجميع المساكن القديمة القائمة على اوتاد مغروزة في الماء . فهذه تستوجب اشغالاً لخفض مستوى الماء أو حـتى لتجفيف البساط المائي — وهذا لا يتحقق الا في النادر — والتنقيبات العائدة لعصر ما قبل التاريخ ، والتي تجري تحت الماء ، هي عديدة في جميع بلدان اوروبا تقريباً . ومن ناحية اخرى فان « مراكب » بحيرة نيمي *Némi* مشهورة : وقد بناها كاليغولا عـلى الأرجح وغمرها الماء ، ولا يعرف متى ولا كيف (عاصفة ؟) ونمت اسطورة حقيقية خلال القرون حول تلك المراكب العظيمة المفترض انها تخفي كنوزاً ضخمة . وبدون ان نتكلم عن عمليات ، النهب السرية التي اخفت بعض الحلى ، فاننا نشير الى محاولات استرجاع على غير طائل ، في القرن الخامس عشر والسادس عشر ، وفي عام ١٨٢٧ وعام ١٨٩٥ الاكثر شؤماً . ان تجفيف البحيرة الجزئي وجرّ مركبين بالحبال قد دام من عام ١٩٢٧ الى ١٩٣٢ وتميز بحوادث عديدة (عواصف شديدة ، وانهيار الارض). والمركبان مستقران اليوم في متحف اقيم على ضفة البحيرة . وكان حفظ الهيكل والأشياء اللاحقة (فسيفساء ، برونز ، الخ .) موضوع عناية دقيقة .

والتنقيبات تحت البحر نادرة جداً . وعدد من مرافىء العصور القديمة مدفون اليوم تحت المياه ، ولكن المطلوب من عالم الآثار قبل كل شيء ان يعرف مخططها ؛ انها لا تستدعي ابحاثاً شاملة . ومقابل ذلك ، في بايي *Baïes* ، على خليج نابولي ، لم تغمر المياه المرفأ فقط ، بل الحمامات الامبراطوريات ايضاً : ومن هنا كانت اهمية الحفريات التي جرت هناك عام ١٩٢٤ . وكانت تحدث بين وقت وآخر اكتشافات عرضية لآثار فنية مختفية في اعماق البحر مع مراكب غارقة . وفي المهدية في تونس عاين صائدو الاسفنج مجموعة مهمة من التماثيل وجرى العمل لاسترجاعها بشكل منسق من عام ١٩٠٧ الى ١٩١٣ ؛ والمركب الذي نقلها كان آتياً من اليونان والمقبول بوجه عام انه كان يسير نحو ايطاليا (تاريخ محتمل : غنيمة ناجمة عن استيلاء سيللا على اثينا عام ٨٦ قبل المسيح) . ولنذكر ايضاً ايفيب ماراتون ، وزوس ارتميزيون ، وإيفيب أنتيسيتير ، آثار وجدت في اعماق المياه وهي اليوم شهيرة .

هذه الدلالات القليلة التي اعطيناها ربما تسمح للقارىء ان يحسب حساباً لهذا الواقع الرئيسي : بأنه لا يوجد في موضوع الحفريات سوى حالات نوعية. وسوف اطبق على الحفريات الاثرية عامةً هذه الملاحظات التي استعرتها ايضاً من الكتاب الذي نتج عن مؤتمر القاهرة : « من ناحية عامة نرتكب خطأ كبيراً اذا اردنا اقرار طرق عملٍ عمومية لأجل تقنية حفريات عصر ما قبل التاريخ . فطريقة العمل يجب ان تتكيف دائماً مع المشاكل المحلية واوضاع الارض ... وجميع الحفريات التي من هذا النوع يجب ان يقوم بها اختصاصيون اغنياء بالتجارب الشخصية ، واذا لم يملأ هذا الشرط فلن نحصل إلا علـى لقىً منفردة لن تساعد بشكل مفيد على حل المشاكل التي تعرضها اللقى نفسها». فالتجربة بالفعل صفة جوهرية للمنقب . وما من مبدأ نظري ، وما من وصفة مكتوبة يمكن ان تسد مسدّها . ان تقنية الحفر لا يمكن ان تكتسب الا بالتطبيق العملي ! ولن تكون ابداً طريقة جامدة ويجب ان تتكيف باستمرار .

وقد خصص مؤتمر القاهرة احد تقاريره « للوثائق اثناء الاعمال » (خرائط

مخططات ، رسوم جانبية ، تصوير شمسي ، تقسيم الارض الى مربعات مرقمة كمربعات الشطرنج ، الخ .) ؛ وتقاريراخرى او فقرات متعلقة بآلات الحفر ، ومواد التصفيف والنقل ، والقوالب والبصمات ، الخ . وقد قال عالم اثري كبير هو او . مونتليوس : « ان الامتناع كلياً عن القيام بحفريات افضل من الشروع بها في شروط تضيع فيها المعطيات العملية ضياعاً لا يعوض [١] » .

قلنا في مستهل هذا الفصل من ماذا تتألف مأساة العمل الذي يتمه المنقب : فالحفر هو إتلاف مجموعة من المعطيات الاثرية لكي لا يبقى منها سوى قسم مهم بشكل يكثر او يقل ؛ والحق ان المجموعة التي تتلف هكذا تقتضي معلومات اخفاها المعول ، وقد قيل ان الحفر هو قراءة كتاب يضمحل أولاً بأول ؛ انه محاولة تجربة فيزيائية او كيماوية يستحيل اعادتها . فأيـة مسؤولية لعالم الآثار الجديد بهذا الاسم ؟ هل سيكون في حالة تمكنه من حـل طلاسم اللغز ، هل سيستخرج افضل فائدة من جميع المعطيات التي هي اول وآخر ملاحظ لها ؟ ولكن يمكن القول بطريقة اخرى ايضاً : « الحفر هو الاتلاف » ؛ الارض تعني الخرائب ؛ واستخراج اثر يعني تعريضه لآفات العوامل الطبيعية . وكذلك فان حفظ الآثار والاشياء ليس اقل اهمية من اكتشافها.

---

١ — اليكم من هذا المبدأ صورة مختارة من بين صور كثيرة : «التاريخ المحزن لمقابر مقاطعة المارن يأتي من ان الاب فافريه *Favret* قد أعاد رسمه بشجاعة وكتب : «٩٥ بالمائة من المدافن المنبوشة في مقاطعة المارن حتى عام ١٩١٠ كانت في ضياع تام . ويجب قول ذلك واعادة قوله عالياً لاجل محاولة منع تخريب جديد للآثار الفنية » . وقد اكتشف اكثر من ١٢٠٠٠ قبر على ارض اكثر من ١٢٥ بلداً ولا يمكن ان ننعت بالتنقيبات تفتيشاً عن قطع من نماذج مختلفة ، وضياع او ترك السيراميك او الاشياء المعدنية التي تركها المنقبون في مكانها » . (ر. لانتيه . مؤتمر علم الآثار الفرنسي ، الدورة السابعة والتسعون . ١٩٣٤ ، صفحة ١٢٣) .

٧ حفظ ، ترميم ، عرض

لا يُحفظ بشكل جيد الا ما نُقّب عنه بشكل جيد . وترتكز المرحلة الاولى من الحفظ منذ البدء على الحفر ، ومداراة الخرائب بأكثر ما يستطاع ، وعدم الشروع في شيء يجعلها في خطر دون ان يكون هناك فائدة . وهذا هو المظهر السلبي من الاستنكاف والحيطة . لنقرر اذن بشكل مبدئي ان فكرة الحفظ ، منذ اول ضربة معول ، يجب ان تكون ماثلة في ذهن عالم الآثار (لن يلجأ الى العمل في المنجم الا في حالات استثنائية ؛ ومع ذلك يتجنبون ، بشكل عام ، إتلاف الصخور ، صغيرة كانت ام كبيرة ، وكذلك الحجارة التي ليس لها شكل معين) . وقد يحدث في حالة استخراج اثر هام — اثر من العصر الاغريقي الجميل مثلاً — ان يضطروا الى إتلاف بناء من العصر المتأخر ، بدون قيمة فنية : في هذه الحالة تنظم بيانات كاملة وتؤخذ صور شمسية قبل اللجوء الى المعول .

كلما استخرج شيء من الخراب يجب تقويته . فجدار لايزال يشكل كلاً تحت الارض ، يتفسخ حين يُحرم من الدعامة التي كونتها العصور له ، ويجب تدعيمه و اصلاحه ايضاً ، وهذه خطوة نحو الترميم الذي سنعالجه فيما بعد . ان الحفظ العملي يبدأ في الوقت الذي يبدأ فيه الحفر .

والحفظ لا يكون دائماً فعّالاً . فبالامكان وقاية جدران من الآجر النيء بصورة احتياطية ؛ الا انها تتلاشى شيئاً فشيئاً وتتحول الى غبار . وبعض الحجارة الكلسية . وبعض التكوينات الرسوبية الطريئة جداً ، لا تقاوم لقاء العوامل الطبيعية ؛ فهي سريعة العطب منذ الاصل ، تفذت اليها رطوبة الارض خلال العصور ، فتتفتت اليوم (في دلفس على الخصوص) بتأثير اتحاد النور بالعوامل الطبيعية . وما هو صحيح في الابنية الحديثة حيث تتآكل الحجارة وتتجوف ، هو صحيح في الخرائب المنبوشة . الا اذا كان الامر يتعلق بحجارة شديدة القساوة (الغرانيت المصري والرخام الاغريقي حساسان بالعوامل الطبيعية بشكل غير متساوٍ) ؛ والبناء الروماني البديع هو ايضاً غير ثابت .

وتعدد الوان اجزاء فن العمارة ، سواء أبقيت معرضة لمجرى الهواء او نقلت الى المتاحف ؛ فهي موقوفة على الاندثار . والتماثيل النسائية (كوريس Corès) التي قطعها الفرس من الاكروبول عام ٤٨٠ . وألقاها الاغريق بين النفايات . كانت الوانها حين اكتشافها — منذ نصف قرن — لا تزال فاقعة ؛ ولم يبق منها سوى الآثار . ولمنع الفسيفساء القديمة من التفتت . ولكي لا يبهت لونها ؛ فأنها تغطى بطبقة من الرمل : اذن فالمنقب مجبر على دفنها من جديد ! اما الجدران العائدة الى عصر ما قبل التاريخ وهي من الحجر الجاف فانها ستتلف بشكل لا يمكن تجنبه .

وهناك اكتشاف حديث العهد لفت الانتباه من جديد الى حالة الالواح المصنوعة من التراب المشوي . ففي حقل حفريات اجريت في ربيع عام ١٩٣٩ وجد عالم آثار اميركي . هو ف. بليجن . قصر نسطور في بيلوس في مسيي : غرفة ذات ابعاد صغيرة كانت تحتوي على اثمن كنز اثري : مقعد فخاري غير متقن يحاذي ثلاث جهات منها . ووجد على ارض الغرفة ستماية لوح او قطع من الواح منقوشة ؛ والنصوص الموجودة عليها محفورة بحروف مشابهة لحروف الكتابة المينونية ؛ انها اول لقية من هذا النوع على البر اليوناني : وهي

تُعرض تحت ضوء جديد وتساهم دون شك في حل مشكلة العلاقات بين كريت والبر ذات يوم . وقد احتيج الى احتياطات غير عادية لانقاذ هـذه الالواح المصنوعة من الفخار الدقيق ، والتي شويت اثناء صنعها ، وخضعت الى تجربة جديدة من النار حين احرق القصر حوالي عام ١٢٠٠ قبل المسيح ، ودفنت في ارض رطبة حوالي ثلاثة آلاف سنة . وأخيراً عادت الى النور . ونفس الحفريات اجريت منذ خمسين سنة ولم تترك اي اثر للالواح .

الحفر انتهى ، فيتوجب على عالم الآثار الذي اداره ، وعلى الادارة التي تتلقى الامانة ان يسهرا على مراقبة الحفر وصيانته . ويجب منع السطح المنبوش من ان يصبح مقلعاً سهلاً للقرى المجاورة ، كما يحدث ؛ ومن المهم إزالة النباتات الطفيلية بانتظام ، والتي ما تفتأ تجتاح الارض. وقد حدثت اضرار لا يمكن اصلاحها في مجرى القرن التاسع عشر بسبب عدم اتخاذ هذه الاحتياطات البدائية .

والتقرير المعروض على مؤتمر القاهرة حول حفظ المجموعات الاثرية والاشياء المكتشفة يبحث في اسباب التفتت الكيماوية ، وفي معالجة الاشياء المتروكة مكانها ، وفي المعالجة الاولية او « النجدة الاولى » للاشياء التي يجب نقلها ، واخيراً معالجة الاشياء الموكولة الى متحف محلي والتي لا تتضمن سهولات خاصة في اعمال الترميم. ويدخل التقرير في تفاصيل عملية دقيقة جداً بشأن لف ونقل فئات مختلفة من الاشياء . ولإعطاء فكرة عن تنوع المسائل الداخلة في العمل فلنعد ذكر عناوين بعض المقالات التي تهتم بموضوع الحفظ والمبعثرة في مجلات متنوعة : « تفتت الحجارة الطبيعية ووسائل وقايتها » ، « تأثير كثبان الرمل على الاشياء القديمة من السيراميك والبرونز » ، « معاودة تآكل الاشياء القديمة البرونزية والنحاسية » ، « الإنبات عدو الآثار » ، « آفة القصدير » ، « حفظ وترميم الرسوم الجدارية » ، « رفع الفسيفساء واعادة تركيبها » ، « العوامل الجوية وحفظ الاعمال الفنية » ، « حفظ الاشياء النحاسية المعطوبة بسبب البيئة المالحة » ، « نقل الجدرانيات الشرقية على دعائم جديدة ». ولنردد :

تلعب التقنية دوراً تزداد اهميته ، وعلى عالم الآثار ، دون ان يصبح كيماوياً او حازم بضائع ، ان يستطيع متابعة اعمال الصيانة والنقل وادارتها احياناً .

لا يكفي اكتشاف الوثائق او تأمين حفظها كيفما اتفق ، بل يجب ايضاً تسهيل الوصول اليها ودرسها . سواء اكان لعلماء آثار آخرين ، ام للجمهور . ومن هنا تنشأ مهمة مزدوجة : تنظيم حقول الحفريات ، والعرض في المتحف ! وفي كل منهما هدفان يجب بلوغهما : هدف علمي . وبهذا المعنى فان مراقبة ونقد جميع النتائج المجتناة يجب ان يصبحا ممكنين على الباحثين ؛ وهدف تربوي . وبهذا المعنى يصبح هناك مجال لمساعدة الجمهور المثقف على « قراءة » الحفر . واكتساب فائدة اللقى . الخ .

ولكن العرض يتصل بمشكلة الترميم . فما هو الترميم ؟ يقول ليتريه *Littré* : « التصليح هو الارجاع الى الاصل ، فيما يتعلق بالعمارة والنحت والرسم » . وكما هو الامر دائماً حين يتعلق الامر بألفاظ تقنية . فان التعريف بواسطة المشابهات البسيطة غير كاف . ولو سرنا الى نهاية الفكرة التي توحيها الكلمة لرأينا الترميم يعود الى ارجاع طرفة فنية الى اصلها في مظهرها الاول ، إذن الى خلق وهم . الى خداع : المثل الاعلى للمرمم هو ان يعمل بحيث لا يستطيع الجمهور . وحتى الخبير . ان يميز الجزء القديم من الجزء الجديد ؛ وبهذا المعنى فان الترميم هو مزيف ذو ادعاءات علمية . ومقابل ذلك توجد اشكال من الترميم غير ضارة ، مثلاً ذلك الذي يتألف من ازالة زخارف زائفة عن طرفة فنية اضرت بها ، فالتنورات المعدنية او الرخامية التي اضيفت بدافع الحياء . في روما البابوية . الى التماثيل القديمة (دون ان نتكلم عن مصير « القضاء الاخير » لميكلانج والذي سببه « براغيتون ») هي النموذج لهذه اللواحق المحزنة . ومع ذلك فاننا نراها : والمقصود هنا ترميم سلبي الى حد ما . كالترميم الذي يكتفي باخفاء طبقات البرنيق *Vernis* والغبار المتكدسة على اللوحات . ان اعمالاً كهذه مشروعة تماماً ولا تثير نقداً او جدلاً (كما

هي حالة تيتوس لرامبرانت) الا في حدود الخوف من ان يلحق المرمم الضرر بالعمل الاصلي رغم ما لديه من نوايا حسنة : انها مسألة تقنية وليست مسألة مبدأ . ويذهب معظم وقت المرمم في هذا السبيل : يصنع قديماً بجديد . ممارسة تستوجب كثيراً من الدرجات . لندع جانباً المزور الواعي الذي يعيد رسم ثلاثة ارباع قماشة قديمة تالفة ويحاول ان يقدمها على انها النسخة الاصلية ؛ ولندع جانباً ايضاً اولئك المتمرسين المهرة الذين اكملوا ، منذ عصر النهضة حتى القرن التاسع عشر ، الرخامات القديمة للملوكنا وجامعي الآثار عندنا ومتاحفنا على طريقتهم الخاصة : اذن فالامر لا يتعلق ابداً بعلم الآثار وبالمستند بل بتزيين حديقة او ردهة وان يوفروا على العين رؤية الرخامات المبتورة . ان الترميم شبه العلمي والمنسق هو اشد خطراً من ذلك : فعلى صعيد العصور القديمة فان افضل مثل قُدم الينا هو ما فعله ثوروالدسن بجبيهات *Frontons* إيجين ؛ فقد التقط النحات السويدي بطريقة جيدة روح هذا الفن الانيق المطبّق ، البارد ، اللاشخصي ؛ ويوجد هنا لقاء عجيب بين التقليد الإيجيني القديم ، وكلاسيكية القرن الثامن عشر المنتهية وعبقرية فنان حاذق ؛ ويجب الامعان في فحص التماثيل التي رممها لإجراء القسمة بين القديم والحديث. وغني عن البيان ان الترميم غير مضبوط على اكثر من نقطة . وان دراسة الاجزاء القديمة اكثر سهولة فيما لو حُررت ؛ ومن ناحية اخرى فان التقليد من ناحية الطراز ، مهما كان مدهشاً ، فأنه ليس متقناً ؛ وهكذا ، فما من احد يجد فائدة في حلول كهذه ، لا العالم ولا الهاوي . وتدخلات فوالبه — لودوق في ميدان آخر ليست اقل دعوة للاسف . فهذا المهندس المعماري الكبير انقذ من الخراب الكامل عدداً كبيراً من الأبنية الاثرية الفرنسية ، ولكنه في نفس الوقت اعاد صنع لوحات الجبهة [1] وارجعها جديدة ، الخ .

١ — *Les Tympans* : لوحات مأطورة مثلثة في الطراز الروماني والقوطي تقع فوق جبهة البناء .

وكان لهذا القسم الثاني من البرنامج نتائج محزنة جداً في فيزيلاي *Vézelay* وفي غير مكان . فالقديم لا يُخلق ولا يقلّد الا بشكل سيء (في شارتر ، في المدخل الشمالي ، رأس أعيد صنعه في القرن التاسع عشر ، وهو حقيقة بربري) .

والمشاكل المعقدة حتى النهاية والتي يعرضها ترميم الابنية الأثرية ، قد صورت على افضل وجه بما جرى على الاكروبول منذ قرن . فقد ترك الاتراك القلعة عام ١٨٣٣ ؛ ومنذ عام ١٨٣٤ اعيدت مدقّة [١] في صف الاعمدة الشمالي من البارتنون الى مكانها باحتفال ؛ انه احتفال رمزي ، اول حركة في عمل ذي نفس طويل قاده بوعي عجيب منذ بدء هذا القرن المهندس المعماري اليوناني نيقولا بالانوس ؛ وقد نشر بياناً شاملاً بالفرنسية حول « آثار الاكروبول ، رفع وحفظ » (١٩٣٨) . ولكي يدل على الاعمال التي شرع بها وانهاها على خير وجه فقد استعمل لفظة « اناستيلوز *Anastylose* » . وهذه اللفظة الجديدة التي دخلت منذ بضع سنوات في اللغة الأثرية وتكرست الآن بواسطة الاستعمال الدولي تعني بدقة : « اعادة تركيب عمود » ؛ وبالتوسع والاتفاق تطلق على جميع الاعمال المتعلقة باعادة الآثار الى مكانها وتقوية غرف بناء [٢] : ولها على كلمة ترميم *Restauration* التي شكونا من غموضها افضلية كبيرة في تلبية تقنية محددة جيداً ومفهوم اثري صرف .

والسائح الذي يزور الاكروبول اليوم لا يستطيع فهم العمل الذي تم، وان الرسوم او الصور الشمسية المأخوذة منذ مائة سنة توضح بشكل شائق . في عام ١٨٣٥ – ١٨٣٧ اول « اناستيلوز » لمعبد اثينا – نيكيه (الذي هدمه الترك كلياً) . ولكن هذا العمل خالف مبدأين جوهريين : فقد بُدىء بعملية الانهاض دون استعادة الحصن الذي يسند المعبد ، وهو خطأ في جعل من الضرورة اعادة العمل من جديد بعد قرن ؛ ومن ناحية اخرى فقد اهملوا التنقيب تحت الأسس وحولها ليجدوا هناك اثر الدول السالفة .

---

١ – مدقة : *Tambour* قاعدة اسطوانية لساق عمود .

٢ – لينتبه القارىء الى اننا سنستعمل الكلمة بنصها الاجنبي في سياق ترجمتنا، فليفهم ما يقصد بها جيداً . «المترجم»

وبوشر بأشغال متنوعة اثناء القرن التاسع عشر ، ولكن هذا حدث فقط بعد الهزة الارضية عام ١٨٩٤ بحيث انتابهم القلق على ثبات الآثار . وكتب بالانوس : « تمت منذ ذلك الوقت اشغال هامة من التقوية والرفع في الابنية الأثرية القديمة المتنوعة ، وبشكل خاص على آثار الاكروبول ؛ وهذه الاشغال هي التي ستعرض في هذه النشرة . فقد فُهمت كلها ونُفذت وفقاً للمبدأ الذي صاغه كافادياس ودوربفيلد ؛ والصحيح فهو ليس سوى المبدأ الذي وضعه قيد التطبيق روس *Ross* وشوبيرت وبيتاكيس ورانغابيه وباكار (١٨٣٦ — ١٨٤٤) ؛ ويقضي بمنع كل ترميم كامل للأثر وفقاً لبعض الاجزاء الموجودة، فهو لا يقبل سوى انهاض القطع الاصلية من الأثر . والقطع الناقصة الضرورية لدعم عدد هام من الرخامات القديمة قد استبدلت بمواد جديدة . وقد يتساهلون بقطع جديدة من الرخام لإكمال وتقوية عتبة [1] *Architrave* صف اعمدة . وقد جرى تنفيذ الاشغال حسب الترتيب التالي :

تقوية الرواق والواجهة الغربية من البارتنون (١٨٩٨ — ١٩٠٢) .

انهاض الاريكتيون [2] *Erechthéion* (١٩٠٢ — ١٩٠٩)

انهاض البروبيليه [3] *Propylées* (١٩٠٩ — ١٩١٧) .

انهاض اعمدة البارتنون الشمالية (١٩٢٢ — ١٩٣٠)

اعادة البارتنون الى مكانه (١٩٢٦) .

انهاض الزاوية الجنوبية الشرقية من جبهة مقدمة البناء الشرقية (١٩٣١) .

انهاض عمود زاوية برونااووس وقسم من الركائز الجنوبية الشرقية (١٩٣١) .

---

١ — عارضة مرتكزة على عمود .

٢ — الاريكتيون : معبد مقام على اكروبول اثينا في إريكتيه *Erechthee* ويؤلف قسماً من رواق الكاريابيد الجميل .

٣ — البروبيليه : رواق في اكروبول اثينا من الرخام الابيض بناه فسيكليس (٤٣٧ — ٤٣٣ قبل المسيح) .

إنهاض جزئي للاعمدة الجنوبية (١٩٣٢ – ١٩٣٣) .
تفكيك ورفع معبد اثينا – نيكيه (١٩٣٥ – ١٩٣٩) .

ولكن اذا كان مبدأ «الأناستيلوز» بسيطاً فان كل مادة من البرنامج الذي نفذه بالانوس تعرض مشاكل خاصة . وسنذكر . كمثلٍ ، هذه الاسطر القليلة المتعلقة برواق الكارياتيد [١] : «ترينا مطبوعة غريغوار سوتزو الحجرية رواق الكارياتيد مهدماً كلياً بسبب قصف عام ١٨٢٧ . والحاكم السبارطي بيناكيس وجد في المدينة رأس احد تماثيل الكارياتيد في الواجهة وقد اعاد تصليحه النحات البافاري إيمهوف . وقسم من جذع احد تماثيل الكارياتيد الموضوع في حالة تراجع من الجهة الشرقية كاد يصبح في متحف الفاتيكان وقد وجده ورممه النحات اليوناني اندرولي اثناء اشغال باكار عام ١٨٤٤ . والسطح القائم على اعمدة *Entablement* والذي أكمل آنذاك بكتل جديدة من الرخام فقد أسند بأعمدة خشبية واستبدلت عام ١٨٧٢ بأعمدة حديدية . وهناك عمود حديدي ثالث قد اجتاز قولبة الطين المشوي لتمثال الكارياتيد المنقول الى لندن وكان يحمل الجزء المطابق للسطح المرفوع على اعمدة . ولكن رؤوس الكارياتيد . حتى ذلك الذي رُمم عام ١٨٤٤ ، كانت في حالة مؤسفة لأن الاوتاد الحديدية الموضوعة بشكل سيء قد تخلخلت ؛ وفضلاً عن ذلك يجب استبدال الكارياتيد المصنوع من الطين المشوي بآخر من باطون ، ويجب تقوية جميع اسس الرواق ، واخيراً فان بلاط السقف الذي يشكل الافريز في الوقت نفسه كان لا يزال موجوداً على الارض . ولهذه الأسباب المتنوعة قرروا تفكيك الرواق بكامله لإعادة رفعه من جديد» .

وفي دلفس فان اعادة بناء الأثر الدوري *Dorique* البديع (قام بذلك ج . ريبلا (١٩٠٥ – ١٩٠٦) الذي هو كنز الأثينيين ، يعتبر نجاحاً كاملاً تقريباً ؛ فالاجزاء السريعة العطب والثمينة (حقول المنحوتات *Métopes* ، اناشيد مع علامات موسيقية) لم تكن قد ادخلت في البناء المعاد : فقد ...

١ – تماثيل نسائية تستعمل كأعمدة لحمل افريز .

في المتحف ووضعت في قوالب في مكانها القديم . وفي دلفس ايضاً لجاؤا عام ١٩٣٩ الى « اناستيلوز » محدود جداً للبناء الاثري المستدير (تولوس *Tholos*) في معبد اثينا : ثلاثة اعمدة مع سطح فوقها تعطي الآن « سلّماً » [١] . وهذا النموذج من الأناستيلوز الجزئي ، المرضي جيداً ، قد اوصي به في مجموع الخرائب المسماة « نائمة » .

وترميمات كهذه (اكروبول اثينا ، دلفس ، بعلبك ، تدمر ، وفي كل مكان تقريباً خلال العالم الاغريقي الروماني) هي فرصة اكتشافات حقيقية للمهندس المعماري ولعالم الآثار ؛ انهما يعيدان اجمالاً صنع عمل المقاول القديم حجراً حجراً ، وهكذا تظهر قيمة مجموعة من تفاصيل البناء التقنية . وفيما يتعلق بالبارتنون فقد استطاعوا على الخصوص بهذه الفرصة ان يدرسوا عن قرب ذلك اللعب العلمي الشديد التعقيد للتقوسات الافقية والعمودية . اسس ، اعمدة ، جدران ، في كل مكان يسيطر الخط المنحني : وانتهى بالانوس بهذه الخاتمة : « ان جميع خطوط البارتنون هي منحنية » .

واحتُرمت مبادىء « الأناستيلوز » الدقيقة بسهولة حين كان الامر يتعلق ببنيان هيليني : رخام الاكروبول بحروفه الحية ، ومهد استراحته والوضع المعقول في سبيل التصاق متقن ، ووصله بكلاليب ينسجم بشكل رائع مع ترميم بدون زخرفة . والامر لا يكون كذلك في عمليات بنيان مؤلفة من عناصر اقل جودة ، حيث يشترك الباطون والجص ، ومعجون المرمر . ومهما كان مثيراً وشائعاً ترميم قصر كنوسوس الذي نقب عنه السير ارثير إيفانس . فقد وُجه اليه النقد احياناً ، وليس بدون سبب .

وهذه ، من ناحية اخرى ، بعض النصائح التي اوصى بها مؤتمر القاهرة حول مسائل العرض وإعداد حقول الحفريات : « فيما يتعلق اولاً بالابنية

---

١ — في دلفس ايضاً يوجد بعض الاعمدة من المعبد الكبير في معبد ابولون الذي اعيد رفعه من عام ١٩٣٩ — ١٩٤١ .

الأثرية الظاهرة ، فان جميع الاقسام الثقيلة من العمارة والتي يجب ان تدخل في اعادة تكوين بناء حين يكون « الاناسيتلوز » ممكناً ، يجب ان تظل في حقل الحفريات اذا لم يكن حفظها يتعرض لأخطار جسيمة . اما حيث لا يمكن تحقيق « الاناسيتلوز » فبالامكان اعادة القطع الموجودة مع الاقسام المطابقة الى مكانها «جذوع الاعمدة على قواعدها الباقية في مكانها سواكف [1] *Linteaux* على عتبات الابواب ، الخ ... والأثر المنبوش سيحتفظ بقسم من مظهره التزييني . وسيستطيع الزائر تكوين فكرة عنه اكثر صحة واكثر كمالاً » ؛ « يجب الا نهمل وضع لافتات في حقل الحفريات تحمل الارشادات الخاصة بتزويد الجمهور بالمعلومات ... الاعمدة الدالّة ... ، مخططات للتوجيه العام » . ولنقل بالاختصار ان حقل الحفريات ليس حقل خرائب فقط يشهد على دمار مزدوج قامت به العصور وعلماء الآثار : يجب ان يأتينا بدرس حي بقدر الامكان .

من يقول حفراً يقول متحفاً أيضاً . فالاشياء المكتشفة يجب قبل كل شيء ان تؤوى وبعد ذلك تُعرض . والعاديات من كل نوع سافرت كثيراً منذ ان اصبح هناك جامعو تحف وتجارة سرية بشكل يكثر او يقل . ولكن تشريعاً شديداً في جميع البلدان قد نما في تواريخ مختلفة ، في مجرى القرنين التاسع عشر والعشرين . وباستثناء مجموعات الاشياء المتشابهة (سيراميك ، فسيفساء، الخ) التي تعرض بكثرة فقد تقرر مبدأ يقضي بوجوب إبقاء الأشياء التي تكتشفها بعثة اجنبية ، كلها او بعضها ، في البلد الاصلي ، وحين يقبل هذا البلد القسمة فان الدولة التي يكون موضع الحفريات فيها هي التي تحتفظ بحق الاختيار . وهذا التطور القضائي يتفق تمام الاتفاق مع الاهتمام العلمي والجمالي : حفظ الاشياء في بيئتها الطبيعية . ولا يجب ان نسير بهذا الامر حتى الاستحالة ، ولا ان نصرّ ، كما كان يجري ، على ان الرخامة الأغريقية في المنفى تُعرّى من فتنتها.

---

١ – جمع ساكف وهو اعلى الباب الذي يقابل العتبة .

ومن حسن الحظ انه لا يزال بالامكان تصدير قسم من اللقى التي وجدت في الشرق الادنى ، وفي الهند ، الخ . الى الغرب والى اميركا ، فهي هناك تصل الى جمهور كبير وتتيح للعلماء الشبان اكتساب تجربة مباشرة على الشيء اثناء استمرارهم في دراساتهم الجامعية ؛ إعداد ممتاز قبل التكوين على الارض ، ولكن من الصحيح ايضاً ان الموقع الاثري يجب الا يحرم كلياً من ثروته الا في حالة الضرورة المطلقة ؛ فمن ناحية مبدئية اذن ، حين يتعلق الامر بموقع مهم ، فان هذا سيفضي الى انشاء متحف محلي . متحف محلي ، متحف اقليمي او متحف وطني ؟ .. المسألة لا تستوجب حلاً موحداً ، ومع ذلك فهي ليست علمية بحتة ، انها ايضاً ذات نظام عملي ومالي . ان نماذج المتاحف الثلاثة موجودة في معظم البلدان : ففي اليونان مثلاً يوجد المتحف الوطني في اثينا ، ومتاحف اقليمية (تيبس *Thèbes* ، سالونيك ، الخ) ومتاحف محلية (دلفس ، اولمبيا ، البيدور ، الخ .) ؛ وفي اثينا ذاتها فان متحف الاكروبول يؤوي الاشياء المكتشفة على الهضبة او على سفوح مكان مقدس . ووفقاً لمبدأ ممتاز لم يلاحَظ بشكل كاف فان هذا المتحف قليلاً ما يظهر في المشهد العام للاكروبول. ولنذكر بين امثلة النجاح الرصين ذلك المتحف الذي أُعد بالقرب من الحقل الروماني الذي حُفر في ريكيبورو كاستل في انكلترا .

وفي المجموع يمكن القول ان الميل خلال اليونان وفي الخارج ، كان الى اللامركزية بالنسبة الى تنظيم القرن التاسع عشر . الا انه يجب الا ننكر الحجج التي يدلى بها احياناً لمصلحة اعادة التجميع ؛ ففي اليونان ذاتها فان تجهيزات احتياطية وغير كافية ولا تكاد تستحق اسم متحف ، قد نقلت الى اوساط اكثر اهمية . وهناك مثل شائق على المركزية قدمه لنا انشاء متحف هو – آديج منذ وقت قريب في بولزانو ، والمخصص لاستيعاب المتاحف المحلية في بولزانو ذاتها ، وميرانو ، وبرونيكو ، وبرسّانون ، الخ ؛ وفي القسم المخصص لعلم لآثار حاولوا اقامة عرض وفقاً للتسلسل التاريخي للاكتشافات التي تمت في الريف ، ابتداء من عصر ما قبل التاريخ .

ان جميع انواع المشاكل الفنية تُعرض عند تنظيم المتاحف ؛ واصبحت ، فهرسة الموضوع عظيمة منذ عشرين سنة . وكثير من المسائل تلامس فن مهندس البناء ، والمزخرف ، والكهربائي . والزائرون الذين عرفوا المعرض عام ١٩١٤ وتابعوا التعديلات التي جرت حتى عام ١٩٣٩ يستطيعون ادراك اهمية الاصلاحات التي تمت ؛ وكذلك قصور رصيف طوكيو هي مثل حي على إنكار مهندس البناء لضرورة العرض المتحفي . واني اريد فقط ان الفت الانتباه الى مسألة تهم المجموعات الاثرية بشكل خاص . ليس كل شيء جميلاً ، ليس كل شيء شائقاً ، حتى لعالم الآثار المحترف ، في موجودات متحف كبير ، ومع ذلك ، فلو اردنا ان نعرض للنظر اقل الاشياء المكتشفة في حفريات او موصى بها ، او معطاة ، او مشتراة ، فيجب على الاقل زيادة مساحة المتاحف الحالية عشر مرات . اذن فمما لا بد منه القيام باختيار تتحتم مسؤوليته على حافظ الآثار ؛ وعلى هذا ان يلقي بالاً للقيمة الفنية والقيمة الوثائقية للاشياء . وقسم مهم من المجموعات ، واحياناً القسم الاكبر ، يكون مُنحّى في مستودعات او في اقبية ؛ فيجب ايضاً ان يظل الوصول اليه سهلاً على الباحثين ، الامر الذي ليس دائماً كذلك : مئات من النقوش الاغريقية في برلين وباريس بعيدة عملياً عن متناول اليد (صحيح ان مشكلة متاحف الكتابات المنقوشة هي خاصة وغير مدروسة جيداً)، ولا تمضي سنة دون ان يكتشف الفضول الجشع لأحد علماء الآثار أو لخبير في مخطوظات متحف، قطعة نادرة او نسخة تعرض تنوعاً شائقاً [١] . اما للاشياء التي يسهل نقلها فيختار عادة طريقةالعرض الموقت التي تسمح بان تمر دورياً امام عيون الهواة كل مجموعات المتحف تقريباً.

وبالاختصار فان عملية العرض على حقل الحفريات او بواسطة المتحف يجب ان تكون مثل كل شيء واضحة وموضوعية . ولا يحتدم النقاش بين الاختصاصيين إلا على افضل الوسائل لبلوغ هذا الهدف المزدوج . الا ان بعض

---

١ — كم من اكتشافات قام بها ف. اميلونغ في موجودات الفاتيكان المجهولة ! ...

التقنيات تتعرض اليوم لشيء من الخطر بسبب الموضوعية الضرورية للعرض : ان الانارة الليلية بواسطة صفوف الانوار وأجهزة مطلقات الاشعة من المؤكد انها ذات تأثير شديد في تقييم الابنية الاثرية وخطوطها وعناصرها الزخرفية ، ولكن تطبيقها على اعمال النحت العائدة الى العصور القديمة والقرون الوسطى يبدو انه عمل مسرحي لا متحفي ؛ فألعاب الانوار تلك تكون صدمتها على القوالب اخف من صدمتها على الأصول . وهذه الطريقة سيتخطاها الزمن .

لقد حان الوقت لقول كلمة عن القوالب *Les Moulages* (وعن الاشياء المعدنية ، والنسخ المأخوذة بواسطة التلبيس بالكهرباء « التنحيس ») . ان دورها عظيم في عدة امور . اولاً هي وحدها تسمح بالمقارنة ، حتى في التفاصيل ، بين آثار متقاربة ، موزعة خلال متاحف اوروبا وآسيا واميركا وافريقيا . وتسمح ايضاً بالتحقق من امثال هذه الايحاءات والتقاربات : انه قالب هو الذي اتاح الى هـ. ج. بين *Payne* ان يعيد « رأس رامبان » الشهير من اللوفر الى احد فرسان متحف الاكروبول . وأخيراً فالقوالب تستعمل في الترميمات ؛ وبقدر ما تبدو اليوم فكرة إصلاح ذراعيْ فينوس دي ميلو مستحيلة ومدنّسة ، يباح للعالم الاثري وللنحات ان يستعيد بواسطة القوالب — محاولة وقتية — المظهر الاولي لأثرٍ مبتور (في كثير من المتاحف فان نماذج الجبس العائدة لمختلف التصليحات المقترحة موضوعة الى جانب الطرف الفنية الاصلية) ؛ وقد استطيع وضع الالوان التي ظهرت عند الاكتشاف على قوالب كوريس الأكروبول (انظر الفصل الرابع) . ويجب الاضافة ان متحف القوالب ، عدا هذه المنافع العلمية ، هو اداة للتعليم لا غنى عنها ، فهو وحده يستطيع ان يقدم الى جمهور من الطلبة والهواة اختباراً مبنياً على العقل ، متزناً ، لفترة معينة ؛ ومتاحف القوالب موجودة في جميع الجامعات ومدارس الفنون الجميلة ، ولا يزال ينقص باريس متحف كبير للقوالب ، وخصوصاً لأجل فن النحت القديم ، وسيمضي وقت طويل قبل تحقيق المجموعة الكاملة التي

تمناها ش. بيكار : « قد يكون ذا قيمة كبيرة وجود متحف ضخم في ناحية ما يمكن ان تُجمع فيه مختلف القوالب لجميع الآثار الهامة في النحت والتي انتجتها العبقرية البشرية حتى العصور الحديثة . وترى فيه تماثيل الهند — وميزوبوتاميا البدائية . وتماثيل الفراعنة ؛ وترى فيه بالقرب منه الجبهات الاغريقية مداخل كاتدرانياتنا الفرنسية ؛ ومنحوتات الاسكندرية وايطاليا الناتئة البديعة . ومنحوتات الفن الاغريقي البوذي ؛ « هرمس اولمبيا » بجانب « داود ذي القبعة المصنوعة من الزهور » . دون ان ننسى آثار رودان وبوريل الخ . » .

وقليلة هي متاحف فن العمارة التي تحتوي شيئاً آخر سوى عناصر منفصلة، كما في اللوفر والمتحف البريطاني : والمقصود حجارة مجلوبة الى الغرب في القرن الثامن عشر وخصوصاً في القرن التاسع عشر . في فترة لم تكن الحكومات التي تملكها حريصة بغيرة على كنوزها التاريخية . اما المتحف المعماري الصرف لمكون من الاصول كمتحف برغامون في برلين فهو شاذ . الا انه محدود بعض قصير وبعدد محدود من الابنية الأثرية . والمتاحف المعمارية الحقيقية هي متاحف قوالب . وهكذا هو متحف تروكاديرو للآثار الفرنسية (فن القرون الوسطى) .

٨ النشر

ليس التنقيب ، والحفظ ، والترميم ، والعرض ، سوى قسم من برنامج علم الآثار ؛ وما دامت النتائج لم تنشر ولم توضع تحت تصرف اكبر عدد مكن من العلماء فكأننا لم نصنع شيئاً . فالمتحف وحقل الحفريات لا يمكن الوصول اليهما الا بعد رحلات تكون غالباً طويلة وغالية الثمن ؛ ومع ذلك فهما لا يصفان تاريخ الاكتشاف ، انهما زينة له . والعالم الأثري الذي لم يشترك في التنقيب هو بحاجة الى معرفة اكثر مما سيتعلم من المتحف والموقع — حين يسمح له وقته بزيارتهما .

« كل شيء ينشر وبسرعة » هكذا صيغ المبدأ المثالي الذي يجب ان يأخذ بيد عالم الآثار بعد التنقيب . ولكن تحقيق المبدأ ، هنا كما في الفصول السابقة ، يصطدم بعقبات عديدة .

وهناك من يعترض بأن النشر لا يكون ممكناً الا بعد دراسة معمقة للمشاكل التي عرضها تقدم التنقيب والاشياء المكتشفة.ويزداد الاتجاه نحو النشر التدريجي . ففي الاسابيع التي تلي التنقيبات ، واحياناً اثناء التنقيبات ، فان المقالات في الصحف تستلفت الانتباه الى الاكتشافات الهامة ؛ ومقالات « اخبار لندن المصورة » المزينة جيداً بالصور ، والمكتوبة بأقلام كتاب من اصحاب

الاختصاص ، اصبحت مرجعاً . والاخبار التي تظهر مرة بالسنة في المجلات المختصة ، (علم الآثار الاغريقي ، والشرق أوسطي ، والمصري ، الخ .) تعطي لوحة عن مجموع الحملات السنوية ، وعما اقتنته المتاحف ، الخ . وتتألف المرحلة الثالثة من تقارير تمهيدية — بشكل كتب مستقلة او مقالات كبيرة في المجلات — تحمل الشيء الجوهري، ولكن يجب ان يتبعهـا نشر نهائي بعد فترة قصيرة بقدر الامكان . وفي الواقع ، من النادر ان يكون النشر « نهائياً » : فتقدم علم الآثار ، بواسطة الاكتشافات ، او التحاليل ، او التفسيرات الجديدة هو ضروري كضرورة التكملة والتصليح بعد فترة من الزمن . ويقول عالم آثار انكليزي هو ج.ب. وايس *Wace* : « لن يأمل المنقب بنشر حكم نهائي حول اللقى التي وجدها مهما كان الوقت الذي يستعمله في ذلك » .

هذا التوزيع الى اربعة مراحل يقدم فوائد كبيرة فما ان ينشر مقال في الصحف وتظهر اخبار أثرية متنوعة حتى تكون دنيا العلم قد أنذرت ويكون الاختصاصيون قد اخطروا الى اتخاذ موقف . ومن الافضل اتخاذ هذا الموقف بعد التقرير التمهيدي . بنوع ان يستفيد النشر النهائي ، بطريقة غير مباشرة ، من الاعتراضات والاقتراحات القيمة .

ولكن يحدث عادة ان تظهر التقارير المسماة تمهيدية متأخرة عدة سنوات وان النشر المسمّى « نهائياً » لا يظهر ابداً . ويحدث ايضاً ان دنيا العلم تنتظر بلا نهاية نشر تقرير ، تمهيدي ام غير تمهيدي . وهذه التأخيرات غير المناسبة تعرض مسألة حقوق وواجبات المنقب . فالحقوق لا يعترض عليها احد ؛ وهي ان ينشر هو نفسه اكتشافاته ؛ ولكنها تجر وراءها ، مقابل ذلك ، اجباره على ان يقوم بالنشر في مهلة معقولة . لا يوجد قاعدة مطلقة ولا محدودة بهـذا الصدد . وقد سجلت حوليات علم الآثار ، بعدد كبير جداً ، حالات النشر الناقص او غير الموجود . ويجب القول بوضوح : لا عذر لعالم الآثار في الاحتفاظ بنتيجة اكتشافاته ، بدافع الغيرة ، بعد قيامه بالتنقيب .

والنشر النهائي يمكن ادراكه بسهولة في حالة تنقيب محدود ذي هدف محدود : كومة [1] تسود الى عصر ما قبل التاريخ . معبد منعزل ، الخ . ؛ وعندئذ يمكن للنشر النهائي الاختلاط بالمرحلة الثالثة . وليست العبارة ذات معنى كبير حين يكون المقصود مجموعة كالاكروبول ، او جريزه ديلوس ، او معبد دلفس . ان كدسة المستندات كبيرة ومبعثرة في الزمن والمكان ، والتنقيبات كثيرة الدقة بحيث تستفيد نفس المسائل اذا استعيدت دورياً . وكذلك لا يمكن الشروع بمشاريع اكثر اتساعاً من نشرات جزئية او احتياطية ، كثيرة او قليلة الغنى بالاعمال والتفسيرات والحفائر الوحيدة ، بين الحفائر الكبرى ، التي يمكن التفكير باجراء نشر نهائي عنها هي تلك التي سيعاد طمرها بسبب متطلبات الحياة العصرية : منها آعوزا اثينا المحفورة حديثاً بواسطة بعثة اميركية . وبعد فهل من المؤكد الا يُستأنف العمل ذات يوم في التنقيب والنشر للذين سير بهما بشكل بديع في هذه الحالة الخاصة ؟ .

وهناك مثل ممتاز حول فائدة تقرير الحفريات قدمه بازيليك بورتا ماغجيور في روما (الذي اشير اليه في الفصل الخامس) . فقد اكتشف صدفة في نهاية نيسان ١٩١٧ ونبش في الاشهر التي تلت . ومنذ عام ١٩١٨ عرّفت ثلاث مجلات ايطالية بالوثائق الجوهرية ، وفي السنة ذاتها اذن للسيد ف. كومون ، الاختصاصي في تاريخ الاديان ، بدراسة الأثر ، وان يعطي عنه وصفاً في مجلة فرنسية . وظهرت عدة دراسات في السنوات التالية من بينها كتاب ج . كارلو بينو ، اما النشر النهائي الذي اخرجه ج. بنديناللي عام ١٩٢٧ منذ استفاد من كل هذه الاشغال . ولكن الامر هنا يتعلق بأثر يقدم اهمية عظيمة لتاريخ الفكر في العصور القديمة . وفي الوقت نفسه محدّد تماماً . اذن كان هناك فائدة في الاسراع بالنشر الاحتياطي ثم النهائي من ناحية ، ومن الناحية الاخرى كان هناك امكان السير بسرعة . اما حالة التنقيبات الاكثر اتساعاً ، والملأى بغبار من

١ – كومة Tumulus : ركمة تراب أو بناء حجري بشكل مخروطي فوق قبر .

الشذرات ، وحيث لا يقدم كثير من الاشياء المكتشفة سوى فائدة معتدلة ، فهي ليست بسيطة .

وبالنتيجة لن يكون المقصود فرض مهلة موحدة على المنقبين . فهناك ظروف خاصة جداً يمكن ان تتدخل . ان حل رموز الالواح الفخارية المكتشفة بالمئات. وبعضها في حالة سيئة جداً . في ماري Mari على الفرات . يتطلب عـــدة سنوات . وفي دلفس فان شذرات التماثيل والكتابات المنقوشة منتشرة على منحدر الجبل حتى اعماق الوهدة . وبين بساتين الزيتون . واذا كان النشر النهائي قد ادير بحذق منذ اربعين سنة ، فسيجد اليوم ان الاكتشافات اللاحقة قد تخطته ؛ وصحيح ان حالة الموقع ومكانه الحالي يحتمان ان لا يكون الحفر متقناً ، ان من يقول : « نشر نهائي » يضمر قول « تنقيب نهائي » وهاتـــان الاعطيتان ليستا واضحتين الا حين يتعلق الامر بأرض او بأثر معين . وقد لجأوا في المجموعات الواسعة الى النشر بكراريس صغيرة ، انه خلق حقيقي مستمر ، مليء بالاضافات . وتعاد كتابته عند الحاجة بين وقت وآخر . وهناك الى جانب علم الآثار . مخطط اختير لأجل مادة الكتابات الاغريقية المنقوشة وذلك منذ عام ١٨٧٣ . ومن وجهة النظر العلمية حفريات كبيرة تجري على مساحة واسعة . مأهولة احياناً في جزء منها . ليست اقل تعقيداً من المواد الكبيرة التي تغطي فرعاً كاملاً من علم الآثار (الكتابات المنقوشة اللاتينية والاغريقية والسامية . آنية قديمة . الخ .) والنشر يعكس هذه الحالة ، مع التكرار والتعديلات والتذييلات والمجموعات الكبيرة (طوبوغرافيا . هندسة بناء ، نحت . نقوش . الخ .) في دلفس وديلوس وميليه . الخ . ، هي ضمن هذه الحالة . اما فيما يتعلق بأثينا . وروما . وممفيس او طيبة مصر فأن تصور نشر مجموعة شاملة يبدو مستحيلاً : لأن هذا التصور يتجاوز باتساعه قـــوى عدة اجيال .

ولكن ليس من الضروري توقع نهاية سريعة لأجل الشروع في ذلك ، ويجب ان يكون المخطط المثالي للنشر شاملاً بقدر الامكان : من الخير ان يمتد

بواسطة دراسة الجغرافيا الطبيعية والبشرية ، على كل المنطقة الموجودة حول مكـان الحفر ؛ وتاريخ الخرائب والسياح الذين اكتشفوها وزاروها يشكل مدخلاً عادياً . ويستوجب الارتياد الاثري لديلوس خرائط للجزيرة ، مع الشرح ، والوصف الطبيعي ويقوم بهذا وذاك اختصاصيون .

وهكذا فالمعضلة التي تعذب علماء الآثار « نشر كل شيء — والنشر بسرعة » ليست مستعصية الحل . « من يعطي بسرعة يعطي مرتين [١] » : التعريف اذن على المواد الخام بأسرع ما يمكن ولكن بدون الاقلاع عن الاشغال المدروسة الاكثر طموحاً .

ولا يؤلف نشر اعمال التنقيب سوى واحدة من سلسلة الفهارس الكبرى التي يستند اليها علم الآثار . والسلسلة الاخرى مؤلفة من الموسوعات الكبرى التي يساعد فيها الكثيرون (إيبر لعصر ما قبل التاريخ ، دارامبرغ ، ساغليو ، بوتيه وبولي ، فيسوفا ، كرول للعصور القديمة الكلاسيكية ، الخ . (ومن المجموعات المتخصصة التي قلنا كلمة عنها : آنية ، نقود ، تماثيل ، نقوش ، الخ . ولن نبحث في تعداد هذه الاخيرة : « فلائحة النقود الاغريقية » في المتحف البريطاني الذي بدأ عام ١٨٧٣ لها وحدها كمية حقيقية من المسكوكات الاغريقية بقدر غنى مجموعات المتحف . ويظهر اكثر فأكثر في ميدان المنشورات الاركيولوجية وفقاً لفئات الاشياء ، ان المساعدة الدولية لا غنى عنها ، وقد جرت محاولة لتنظيم هذه المساعدة بواسطة تغييرات متنوعة ، منذ نهاية القرن التاسع عشر . انها تفترض تلبية عدد من الشروط المعنوية وتلبي ايضاً تنظيماً مادياً صعب التحقيق . وقد انشأت مؤسسة الملكة اليزابيت في بروكسل مركزاً للمراجع لأجل علم الآثار المصرية يرجع اليه علماء الدنيا كلها ؛ ويشرف الاتحاد الاكاديمي الدولي على اصدار عدداً من النشرات وخصوصاً لوائح الآنية القديمة ؛ وهناك المجمع الدائم لما يدعى مختصر الامبراطورية الرومانية ؛

---

١ — باللاتينية في الاصل .

ويظل كثير من التقدم يجب احرازه في سبيل وضع المساعدة موضع التطبيق :

وقلنا سابقاً اي دور لعبته طرق النسخ الآلي في نمو الدراسات الاثرية ؛ فالتصوير الشمسي وامكان سحب نسخ بعدد لا نهاية له (بواسطة الطباعة التصويرية « طريقة للطباعة بالحبر السميك بواسطة الجيلاتين »والتصوير الشمسي) وبثمن متواضع ، قد غيّر مظاهر وطريقة النشر . ويجب الا نتكلم عن شيء او عن اثر غير منشور دون ان نضع امام عيني القارىء جميع القطع المدروسة ، بشكل صور شمسية ، وسواء اكان الامر يتعلق بالسيراميك او بالنقوش ، او بالمسكوكات ، او بالنحت ، او بهندسة البناء . فان التصوير الشمسي اصبح المساعد الذي لا غنى عنه للنشر الأثري : ومن وجهة النظر هذه . يجب الأسف لأن معظم المجلات الفرنسية لم تكن مصورة بغزارة وبفخامة . ان الصورة الشمسية يجب ان تكون وثائقية قبل كل شيء ، وتظل كذلك . حين تكون من عمل علماء الآثار ؛ ولكن قد ظهر منذ عشرين سنة ميل للتصوير الشمسي المعبّر ، التعبيري او الانطباعي ، بعامل من تأثير السينما وألعاب النور التي تتحقق في اخراج المسرحيات . وإذا كانت مطامع هذا الفن الفوتوغرافي مبررة ام لا فانها مسألة لا تهم علم الآثار : ولكن الحذر ضروري في حدود توق هذا الفن الى اجتياح الكتب ذات المطامح العلمية ؛ فاذا ادركنا ذلك ، فان التصوير الشمسي يخلق الوهم ؛ ويمزج الطرق الفنية بالاشياء السيئة ؛ ويستطيع — كالتنوير الليلي للمواقع والمتاحف — استلفات الانتباه الى خط ، لى مجلد ، الى حركة ، ولكنه بالتحديد غير امين . ان التصوير الشمسي ذا المطامع الفنية هو متمم خطر .

وفيما وراء النشرات عن الحفريات تشكل المجموعات ، والفهارس ، والابحاث ، والكتب والدراسات الشاملة مرحلة لا غنى عنها لعلم الآثار . وهذا العلم ، كجميع العلوم ، يسعى ليتخطى مرحلة التحليل وليعرض تحققات جزئية تحت اشكال متنوعة . وقد اشرنا سابقاً الى مجموعة هامة من الكتب

الفرنسية الموجزة . ولن نتعرض هنا للمشاكل التي يعرضها الانتقال من النشر التحليلي الى البحث المنسّق : فهي ليست خاصة بعلم الآثار .

ويجب ان نشير اشارة خاصة الى المجلات المتعددة الادوار . « فالمجلة الاركيولوجية » في فرنسا ، التي تغطي ميدان ما قبل التاريخ . والعصور القديمة ، والقرون الوسطى يبلغ عمرها الآن اكثر من مئة سنة . ومجلة « آثار ومذكرات » (مؤسسة اوجين — بيو) التي تنشرها اكاديمية النقوش . مزينة بصور فخمة ، وهي في قلب الاستعلامات الاثرية التي تكملها من ناحية اخرى مجلات متخصصة (مجلة المراسلات الهيلينية ، ما قبل التاريخ . بعثة اثرية في ايران ، الخ .)

ولننه بحثنا بثلاث ملاحظات عملية : من حين لم تعد اللاتينية هي اللغة المشتركة في العالم المتمدن ، فان عدد اللغات التي تنشر بها الاشغال الاثرية لم ينقطع عن الازدياد . فالانتاج الروسي مثلاً اصبح زاخراً منذ نصف قرن . والمجلات والمؤلفات المكتوبة بالهولندية . والسويدية . والنرويجية ، والدانيمركية والفنلندية ، والتشيكية . والسلوفاكية . والسلوفينية ، والصربية — الكرواتية ، والرومانية والبلغارية ، واليونانية ، والتركية تشكل جزءاً من المكتبة التي لا غنى عنها للعديد من علوم الآثار ولا يمكن ان تجهل . وتجري محاولة لإزالة العقبات التي تنشأ عن هذا التنوع باللغات وذلك بان ترفق الاشغال ، المنشورة بلغات ذات انتشار محصور ، بملحق بالالمانية والانكليزية او الفرنسية .

مشكلة اخرى : عدد المجلات يزداد بشكل ان الاطلاع عليها كلها يزداد صعوبة حتى على الاختصاصيين . ومنذ خمسين خمسين سنة وصرخات الانذار تطلق مرة بعد مرة امام مد المجلات الدورية الصاعد . وليس هنالك انسان شخص يستطيع شراءها او إيواءها . حتى ان اكبر المكتبات لا تكاد تعلم بها ولا تقدم للجمهور المستنير تسهيلات العمل الضرورية . هنا مشكلة مالية وتقنية للتنظيم ومعطياتها معقدة بشكل غريب . ويلاحظ ان الدول الذين [illegible] في

انتشار اكثر كبراً وفي استشارة اكثر سهولة للآثار المنشورة : ان الانتاج نفسه هو الكثير الغزارة : كثير من الاشغال لا فائدة لها . او طويلة بلا فائدة : ولكن كيف نختار وكيف نفرض الصمت على ثرثاري العلم ؟ . ان نشرات نقدية ممتازة تظهر كل سنة في بعض المجلات المتخصصة تستطيع الى حد كبير ان تدل الباحثين . ولكنهم . هم انفسهم . يصطدمون في اغلب الاحيان بالصعوبتين اللتين اشرنا اليهما : ان بعض اللغات وبعض النشرات تظل متعذرة على الذين يكتبون .

واخيراً كلمة حول المصطلحات . ان تنوع اللغات التي يوضح علماء الآثار افكارهم بها . وتعقد المسائل التي يطرقونها . وتنوع تشكيلهم . كل هذا جلب نوعاً من الحيرة في استعمال كثير من الالفاظ . ولأجل اقرار التنسيق الذي لا غنى عنه ، فقد جرى البحث مرة بعد مرة ان تقوم لجنة دولية باعداد معجم بلغات متعددة تعطى فيها التعريفات والمشابهات . وهناك قواميس فنية وأثرية في عدة بلدان تعتني منذ الآن بترجمة عناوين المقالات الى لغتين او ثلاث .

٩ حدود وعقبات علم الآثار

ما من علم يبلغ درجة نضوجه الا متى عرف حدوده. وحدود علم الآثار يجب الا تترك في الظلام . والمطامح التي يفصح عنها بعض ممثليه الاكثر شهرة في القرن التاسع عشر لا تسير بدون سذاجة . وهناك نقطتان يجب ابرازهما :

اولاً . في اغلب الاحيان . حين يترك علم الآثار لذاته ولا يلاقي اية نجدة من اية دراسة للنصوص . وتحت اي شكل . فان المعارف التي يأتينا بها عن الماضي تكون ناقصة بشكل غريب. ومن بين القيامات[1] الكبرى التي نحن مدينون بها لعلماء الآثار . فان اكثرها تأثيراً هي قيامة كريت المينونية ؛ والحق ان قلقهم يصبح ظاهراً منذ ان يحاولوا النفاذ الى اسرار جدرانيات كنوسوس او نادوس هاغيا تريادا ؛ واذا ظُن ان بالامكان وضع الخطوط الاولية لتاريخ امبراطورية البحار الكريتية فلا يجب ان تفرض على عامة الناس تأكيدات بعض كتب التحقق والتعميم — مع انها ممتازة : فحقائق اليوم تُذم غداً . والكلمات والحكايات . والشهادات — حتى التي تقال عن هوى — هي عناصر لا غنى عنها للبحث ؛ ويعرف المؤرخ ان يلتقط صدى الاخفاق من خلال اناشيد الامراء المصريين او الاسيويين الخاصة بالنصر : كل شيء افضل من صمت

١ — المقصود بها القيامة بعد الموت : البعث ؛ اي بعث الآثار الدفينة .

لاشكال الغامض . والمعركة التي تستيقظ من وقت الى آخر بين علماء الآثار اوعلماء اللغات ليس لها معنى ، فالعلمان متضامنان ، ويجب ان يشتركا ما يمكن ، واتحادهما وحده يمكن ان يؤلف من الماضي صورة لا تكون غير امينة ، والفن الاغريقي والادب الاغريقي لا يؤلفان عالمين مستقلين . ولفهم كاتدرائيات القرن التاسع عشر لا غنى عن«الاسطورة المذهبة *La Légende dorée* و « المنظار الاخلاقي *Speculum Morale* » (انظر اعمال اميل مال الجميلة) .

وحدٌ آخر لعلم الآثار . هناك حضارات لم تترك اي اثر مادي . وقد كتب ج . دي مورغان : « لقد سافرت وعشت عدة اشهر عند النغريتو [١] في *Les Ségrites* داخل شبه الجزيرة الماليزية حيث لم يكن قد دخل اي اوروبي بعد الى قلب منطقة هذه القبائل . وهؤلاء الناس ، القليلو العدد كسكان ، مقسمون الى عشائر تتكلم كل منها لهجتها الخاصة . ويعيشون في اودية الجبال الاكثر وعورة ، حيث انسحبوا امام غزوة ماليزيي السهول . وهناك في وسط الغابات العذراء التي لا نهاية لها ، بنوا مساكن مشتركة ، يبلغ طولها احيانا خمسة عشر او عشرين متراً . ومؤلفة من سطح بسيط من ورق النخيل المضفور موضوع على الارض . ويرتدون ، كملابس ، وزرة مصنوعة من لحاء الشجر الملين بواسطة التطريق . وسلاحهم هو الرمح والانبوبة [٢] عند الساكاي ، والقوس والرمح القصير عند السومانغ . والسهام والرماح منتهية بخيزران ملبس بالفولاذ ومغمس بسم زعاف.وهم يعيشون من الصيد او من العساقيل [٣] التي يجدونها في الغابة ، وبعضهم من الذين يجاورون المؤسسات الماليزية ، يزرعون المنيهوت [٤] *Manioc* . ولا يملكون ادوات معدنيةسوى تلك التي تصل

---

١ – النغريتو : اقزام سود يشكلون اساس السكان الاصليين لبعض مناطق افريقيا الوسطى والفيليبين والجزر الماليزية .

٢ – الانبوبة *Sarbacane* : انبوب طويل يستعمل لإطلاق قذائف صغيرة بواسطة النفخ .

٣ – العساقيل : جمع عسقول وهو جزء من ساق نباتية او من جذر نباتي يكتنز المواد الغذائية .

٤ – المنيهوت : ضرب من النبات يستخرج من جذوره دقيق نشوي ..

اليهم من الماليزيين . وليس لديهم ملح . ان شعوباً كهؤلاء سوف تختفي دون ان تترك وراءها اي اثر اركيولوجي عن وجودها » .

وفي منطقة اخرى من العالم . اهميتها فريدة لتاريخ البشرية ؛ لا يعطي عالم الآثار اية معلومات تقريباً : لم يبق شيء من العبرانيين البدو ؛ وقد استطاع ا. دورم *E. Dhorme* ان يكتب بشأن الاسماعيليين : «لا قصور . ولا معابد. حتى ولا بيوت لنقل اعمال وحركات القبيلة الى الاعقاب . وقد استطاع المنشدون الذين يرتجلون الشعر وحدهم ان يثيروا حماستهم او يشهروا غرامياتهم . في المساء تحت الخيمة . على صوت ربابة ذات وتر واحد وطبل ذي دوي شديد » . وعلم الآثار من وجهة عامة لا يستطيع ان يصل الا الى قسم من الاشياء التي تؤلف حضارة . وهذا القسم هل هو الاكثر اهمية والذي يستحق البقاء ؟ . ليس هذا صحيحاً كلياً . اولاً لأن تأكيداً كهذا يقتضي حكماً قيماً يستحق المناقشة : في الواقع . ان عالم الآثار فضولي فيما يتعلق بجميع مظاهر الحياة وليست قيمة الشيء الفنية هي التي تهمه وحدها ؛ ثم لأن خلود المادة . غرانيت مصري . رخام اغريقي . برونز لورستان [1] والصين لا يقترن دائماً بالجمال : اية خسارة يمثل اختفاء جدرانيات كريت او ميزوبوتاميا التي لم يحتفظ منها بسوى شذرات ؟ وماذا بقي لنا من تحف بولينيوت[2] الفنية؟ عدد صغير فقط من الاعمال التي أتمتها يد الانسان خلال العصور . ولا يحتفظ عالم الآثار من الاجيال الا ببعض الحطام المبتور .

وهناك اخطار اقل خطورة . او على الاقل من الممكن مكافحتها ، تهدد علم الآثار : انها تنشأ عن الاهواء البشرية .

فالنزعة الوطنية والآراء السياسية هما في عداد العواطف التي تلعب دوراً في علم الآثار . وهذا الدور يمكن ان يكون خصباً . فهناك حفريات بوشر بها

---

١ — لورستان : منطقة في بلاد ايران الغربية ..

٢ — بولينيوت : رسام اغريقي ولد في جزيرة ثازوس في القرن الخامس قبل المسيح .

وسير بها الى نهاية حسنة في روح من التقوى والكبرياء الوطنيتين : ولا اعرف مثلاً على ذلك اكثر تأثيراً من اليونان ، ولكنه ليس منفرداً ؛ ففي أطر اكثر تواضعاً يتدخل حب الذات الاقليمي ليوقظ وينعش البحث في سبيل تقديم نتائج حسنة . ولكن بقدر ما تحمل المنافسة السليمة من ثمار جيدة بين مقاطعة ومقاطعة ، بين امة وامة ، تكون بعض الاشكال من العواطف الجماعية مشؤومة على الدقة العلمية . ويحدث عادة ان يستخدم علم الآثار – كالتاريخ الذي هو احد فروعه – كذريعة سياسية او ان تعطي الاعمال الأثرية تأويلات مغرضة عن حسن نية (وهي الحالة الوحيدة التي تهمنا هنا) . ونجد في ذلك مثلاً مدهشاً في افضل واحدث كتاب عن علم الآثار العام وتحت قلم احد علماء النقوش ؛ ونستطيع ان نقرأ فيه ان « عملية نقش جردة بمحتويات المعابد والمستودعات ، الخ . في الرخام هي احدى خصائص العالم الاغريقي المعزوة الى الحذر الديموقراطي الذي يمتد الى جميع المسائل ذات العلاقة بادارة الاشياء القيمة ». ونواحي الضعف في الديموقراطية الاغريقية درست في اغلب الاحيان وتؤلف فصلاً من التاريخ القديم يمكن ان ينشأ حوله تفاوت في وجهات النظر بين المؤرخين : ولكن لا علاقة للديموقراطية بحفر جردات المحتويات .

ولن نزداد دهشة حين نجد حب الذات الفردي بين مصادر الخطأ الاركيولوجي : فهنا ، كما في الفقرة السابقة . فأن الاكاذيب الاكثر خطراً هي التي تتوطد عن حسن نية . وهناك ميل عجيب لصاحب الابتكار ، ميل يعرفه جيداً كل علماء الآثار ، هو ان يعتّق اكتشافه . فنحاتو موقع غني قائم بقرب الحدود الشمالية السورية ، تل حلف ، أرّخهم العلماء الذين اداروا ونشروا الحفريات ، قبل الف سنة زيادة عما فعل اكثرية العلماء : ففي الحالة الاولى يصبح تل حلف مركز حضارة وفن سيكونان سابقين ، في الالف الثالث ، وفي الحالة الثانية ، فان النحاتين باحتفاظهم باصالة حقيقية وذلك بديناميتهم وواقعيتهم ، لا يندمجون في مجموعة واسعة (النصف الثاني من الالف الثاني) حيث يوجد تأثيرات اجنبية عديدة . ان الهواة والعلماء يخطئون

في اغلب الاحيان بميلهم الى المغالاة في قدم مقتنياتهم والاشياء التي وجدوها ، او ان يجعلوا منها اشياء اصلية بينما الاكثر احتمالاً هو انها ادلة متأخرة .

لندع جانباً طبيعة علماء الآثار البشرية : فالعواطف ، صغيرة ام كبيرة، حقيرة ام نبيلة ، مسؤولة عن الاخطاء اقل من مسؤولية ذكائنا والبطء في اكتشاف الحقيقة من خلال المظاهر . ويجب التسليم : فالتقدم بطيء في علم الآثار كما في علوم اخرى ، لأن من الصعب الرؤية جيداً في غبار الاعمال . وبالعكس، فمن السهل نسبياً على العالم الجدير بهذا الاسم ان يضع نفسه فوق الشواغل الغريبة عن العلم : واذا حدث له انه اعار كثيراً من الاهمية لاكتشافاته الخاصة فان جموع زملائه يخصصون له بسرعة مكانه صحيحة .

ويوجد فئة اخرى من الاخطار ، هي تلك التي تتعرض لهـــا الخرائب والمستندات التي وصلت الى ايامنا . بسبب متطلبات المدنية الحديثة . فالحوادث التاريخية وعمل العناصر الطبيعية أوصلت الى حالة نستطيع ان نسميها للتبسيط حالة اثرية : انها تقدم للعلماء بعض الامكانات ؛ والحق ان هذه الامكانات يخشى ان تفسد في الوقت الحاضر تحت انظار اولئك الذين يهتمون بها اكثر من غيرهم . ان الف سبب من التخريب الطبيعي خلال العصور قد عملت واستمرت في العمل (وقد رأينا ان من نتيجة الحفر في اغلب الاحيان انه يعجل في تخريب بعض الآثار) . فالماء ، والجليد ، والشمس هاجمت الحجر والخشب : ورطوبة التراب ، والملح الموجود في الارض يخربان الأسس ، ويقرضان المعدن . الخ . والريح البحرية (تأثير شديد في معبد رأس سونيون) والرمال (في لبثيس مانيا مثلاً) قرضت الاعمدة : والهزات الارضية قلبت المعابد والاروقة خلال العالم الاغريقي من اولمبيا الى برغام ، وخرب بركان اتنا مدينة كاتان عام ١٢٢ قبل المسيح . وفيزوف خرب مدينة هركولانوم وبومبي عام ٧٩ بعد المسيح ؛ وثورات البراكين منذ الالف الثاني قبل المسيح غيرت مرة بعد مرة مظهر جزيرة سانتوران (تيرا *Thera*) واكتشفت عام ١٨٧٠ بقايا مدينة تعود الى عصر ما قبل التاريخ وكانت منذ ذلك الوقت قد انهارت تحت الماء ، ودمرت

الحرائق معبد أرتميس في ايفيز [1] ومكتبة الاسكندرية . وهناك جنود وافراد قد نهبوا واتلفوا ، واقيمت مدن على الخرائب القديمة ؛ واستعملت الآثار مقلعاً للاجيال اللاحقة ، وأعيد تشذيب الحجارة وأزيلت النتوءات بالمطرقة (لأنها مزعجة اوكافرة) وشوهت الكتابات المنقوشة على التماثيل؛ ووجدت افران الكلس بالقرب من جميع الخرائب الاغريقية والرومانية الكبيرة. وهناك حي في روما «كالكارانوم ، لوكالكارا» مدين لها باسمه ؛ والفوريوم والاكروبول الخ ... كانا فريسة البنائين ؛ وفي القرن الثامن عشر قدم معبد العمالقة في اغريجانت المواد الضرورية لبناء رصيف قريب ؛ وفي كل مكان تقريباً . وخلال ما كانته الامبراطورية الرومانية ، حطم الباحثون عن المعادن رؤوس وقواعد الاعمدة ليصلوا الى الكلاليب الحديدية التي تمسك بها : والمثل الاكثر شهرة على هذا التشويه هو كوليزه روما ؛ وفي القرن السابع عشر فان قسماً من تلبيسات بانتيون هادريان البرونزية قد اذيبت لصنع المدافع [2] . والتعصب الديني ، المسيحي والاسلامي على الخصوص ، اخفى كثيراً من التماثيل ؛ وقد امر تيودوس الثاني عام ٤٣٥ بهدم جميع المعابد الوثنية ؛ واستعمل الاتراك البارتنون كمخزن للبارود وقذفه موروزيني بالقنابل ونسف من وسطه ؛ وهناك معابد حولت الى كنائس وكنائس الى مساجد ؛ ونهب الفاتحون الآثار الفنية منذ موميوس وسيللا حتى نابليون ؛ وجلب الاباطرة البيزنطيون ، وبعناء شديد ، اعمدة منتزعة من المعابد الوثنية لبناء كنائسهم (في كنيسة القديسة صوفيا اعمدة من إيفيز وسيزيك ، الخ .) ، واتلفت الثورة الفرنسية كثيراً من منحوتات العصر الروماني والقوطي ؛ الخ.

هذا هو الماضي ، وهذه هي بعض التقلبات التي قادت الحضارات القديمة حتى أيامنا . حتى «الحالة الاثرية» . والحق ان اسباب الدمار التي اشرنا اليها لم تلغ بقدرة السحر يوم اصبح فيه علماء الآثار يجأرون بالاحتجاج فوقاية

١ – ورد اسمها في رسائل بولس الرسول : أفسس ..
٢ – قام بذلك البابا اوربان الثامن من عائلة باربارني .

الآثار ضد عامل الزمن يصعب تحقيقها (وقد قلنا كلمة عن ذلك في الفصل السابع بمناسبة الترميم).

اما ضد همجية تخريب النفائس عند الناس فقد أقرت شيئاً فشيئاً قوانين في مختلف البلدان (في اليونان مثلاً كما في تركيا منعت اقامة افران للكلس بجوار الخرائب القديمة)؛ وتأمن انقاذ العاديات نظرياً، ان لم يكن عملياً، في جميع البلدان المتمدنة. ولكن للاعمال المعاصرة متطلباتها؛ فمدن كأثينا، وروما، وبيزنطية اصبحت عواصم حديثة كبرى؛ وانتظام هذه المدن يفضي بشكل لا يمكن تجنبه الى جميع انواع الاضرار التي تصيب جوهر علم الآثار. ومن الصعب، من ناحية اخرى، القيام فيها بحفريات منظمة. ولا يوجد لهذه المشاكل سوى حلول جزئية: منها ما يرتكز على هدم الاحياء او كتل البيوت وهذا ما اختارته روما، وخصوصاً حول فياديل امبيرو واوغستيو الحديثة؛ وفي اثينا، مكان اغورا القديمة؛ والآخر يكتفي بان يراقب بدقة اقل اكتشافات الصدفة اثناء اعمال تنظيم المدينة، واعمال البناء، الخ. والتدخل حالا للانتفاع بامكانات الارض على الاكثر؛ وفضلاً عن ذلك، فان الحرائق المتكررة في الاستانة جعلت بعض التنقيبات ممكنة. ومن بين الامثلة على تخليص الخرائب بواسطة هدم المساكن الحديثة فاننا نشير الى حالة مدرج اورانج الذي تخلص منذ عام ١٨٤٥ من اكثر من مئة بيت، وحالة حفريات دلفس التي ادت عام ١٨٩٢ الى نقل قرية بأكملها.

ومع ذلك، ففي القرن العشرين جلبت بعض المتطلبات الاقتصادية ضربات مشؤومة للوضع الاثري الراهن. ليس للدفائن فقط بل لخرائب مشهورة. فبناء سد اسوان في مصر، وهو عمل مدهش للتقنية الحديثة، كان من نتائجه اغراق جزيرة فيلا عدة اشهر من السنة، وتخضع الآثار الموجودة فيها لتجربة متناوبة، بواسطة الماء وبواسطة الهواء، الامر الذي لن يعدم ان يحدث اسوأ تأثير على وجه الحجر، وخصوصاً على الاجزاء المزخرفة. وفي عام ١٩٠٨

امرت بلدية روما بهدم جدار اورليان من ستة اماكن ، وهو الأثر الذي ظل محفوظاً حتى الآن بشكل يستحق الاعجاب . في القسم الذي يمتد من بورتا بنسيانا الى بورتا سالاريا ؛ وهناك حل اقل عنفاً قد اختير اولاً . وكان ممكناً من ناحية التنظيم المدني ومفضلاً بنظر علم الآثار .

والتنقيبات السرية هي احد الشرور التي تسعى قوانين حماية الآثار لتعاقب عليها بقسوة . ويروي سترابون ان الجنود الرومانيين انتهكوا في كورنثيا حرمة القبور القديمة ليبيعوا الاشياء الثمينة الموجودة فيها . وليس هناك عالم آثار في ايطاليا . واليونان . وافريقيا . والشرق . وبالاختصار في جميع البلدان الغنية بالآثار القديمة ؛ لم تسنح له الفرصة للعن لصوص القبور والباحثين عن الكنوز : فقد نهبوا . خلال قرون . كل شيء تقريباً في سبيل المنفعة المادية الآنية (هناك تهديدات ضد انتهاك حرمات المدافن محفورة في اغلب الاحيان على انصاب القبور وموجهة الى الناهبين) . وهناك استثناء على الاقل : لقد انتهكت حرمة القبور في مصر منذ القدم للاستفادة من المواد المأتمية في قبور اخرى . ولا تزال تجارة العاديات ، سواء اكانت سرية ام لا . تتغذى في ايامنا من التنقيبات السرية او اكتشافات الصدفة . واستطاعت هذه التجارة طوال العصور . وقبل اقرار القوانين حول العاديات . ان تكون مباحة وساعدت على تأمين انتقال آثار فنية قيمة الى الغرب . وبالنتيجة حفظها . وبفضلها انشئت المجموعات الخاصة . والمحاذير الكبرى للصفقات الخفية هي اثنتان : اولاً . ان من يكتشف شيئاً قديماً . بالصدفة ام بغيرها . ويبيعه . فانه يخرب الحفريات دائماً ؛ وسيحاول من ناحية اخرى ان يبقي المصدر سرياً . وحين يصل الشيء . من خلال عدة وسطاء . الى جامع الآثار او الى متحف اجنبي ، يكون مجرداً من كل هوية او مزوداً بهوية كاذبة . وهذا اكثر خطورة .

وتجارة العاديات هي ايضاً السبيل العادي التي تقذف منه المزيفات الى الاسواق . ويوجد عدة درجات في نشاط ومطامع المزيفين . ويكونون في

اغلب الاحيان من عدم المهارة بحيث لا يستطيعون ان يخدعوا سوى عديمي الخبرة من السياح . واحياناً على العكس ، يكون نجاحهم رائعاً ؛ ومنذ ستين سنة خدعت جامعي آثار متذوقين تقليدات ممتازة لتماثيل تاناغرا [١] . وكانت هذه التقليدات قد انتشرت في التجارة على اثر النجاح الذي نالته تنقيبات تاناغرا لدى الجمهور . ان كل حادث اثري كبير يسبب ظهور المزيفات.وقد ادت المجادلات التي عقدها بوشيه دي برت الى صنع صوّان باليوليتي مزيف ، واحدثت موجة الفن الميسيني والفن الكريتي جميع انواع التقليد التي نجحت احيانا بشكل خطر ، الخ . وهناك بعض حالات خاصة احدثت تأثيراً في الرأي العام . ان تاج سايتافرنيس احدث فضيحة : فقد اشتراه متحف اللوفر عام ١٨٩٦ وعرفه عالم الآثار الالماني فورتوانغلر انه حديث العهد (تأمله لحظة ، وصرخ : « هذه القطعة زائفة » ؛ وحين سئل على ماذا بنى تأكيده اجاب : « هذا يُحس به » ؛ والكلمة صحيحة ؛ فهناك نوع من حاسة التمييز هو ثمرة تجربة طويلة ، تميز « العارف ») . لقد كان من صنع جوهرتي حاذق في اوديسا . وكتابات غلوزيل المنقوشة هل يجب ان تذكر في هذا الفصل ؟ فاذا ، كان الجواب بالايجاب فان الخدعة هنا معقدة باخراج ماهر . وصنع النقود الفضية والذهبية المقلدة للنقود القديمة هو مزدهر . وهناك نسخ عن النقود المزيفة جميلة جداً ، أُدخلت على سبيل الاعلام والتحذير في الواح « كنز نقود اثينا » المنسوب الى عالم المسكوكات اليوناني الكبير سفورونوس . وفي النحت فان مجموعة البارون دي غرونيسن *Grüneisne* في روما والمؤلفة كلها تقريباً من المزيفات ؛ وجدت في شخص عالم آثار شهير ضامناً متعجلاً ؛ ومنذ عشرين سنة قذفت الى السوق اعمال مستوحاة بمهارة من الفن اليوناني القديم : ليس مستحيلاً ان يكون بعضها قد نفذ الى

---

١ – تاناغرا : مدينة اغريقية مشهورة بتماثيلها الصغيرة من التراب المشوي .

المتاحف الاوروبية والاميركية الكبرى . وتعرض بعض المتاحف في واجهات خاصة قسماً من المزيفات التي أُدخلت ضمن محتوياتها بطرق مختلفة (وصية . هبة . شراء) : انه درس مفيد . فقد استولى الخوف من المزيف على كثير من حافظي وجامعي الآثار . وبرهن المزيفون على مهارة تزداد مع تقدم التقنية الاكثر عصرية . وتملك المتاحف الكبرى الآن مختبرات تُخضع الآثار المشبوهة لتجارب صارمة .

خاتمة

لقد ظللنا باستمرار تقريباً على مخطط المنهج خلال الصفحات السابقة ولم نحاول في اية لحظة ان نعرض نتائج مجردة : فالحالة الحاضرة للدراسات الاثرية الاغريقية والحثية او ما قبل عصر كولومبس ، هي خارج موضوعنا . وقد جربنا فقط ان نرى بوضوح في غبار الابحاث التي تؤلف علم الآثار : وكانت مناسبتنا ان ننظم علوم الآثار ونثير المهام المشتركة التي تسنح لها .

هناك تطور مزدوج ينعش اليوم المجموع الذي تشكله . فمن ناحية ، يوجد تجزئة وتخصص حتى النهاية ؛ وكان سالومون ريناخ (مات عام ١٩٣٢) دون شك آخر عالم آثار استطاع الزعم انه سيطر على علم الآثار بكامله (ولكن بحظوظ مختلفة) : فغزارة المستندات والنشرات ، والمتطلبات الشديدة للمنهج العلمي تجبر الباحثين والعلماء على حصر حقل عملهم ؛ وهناك حقول اختصاص اكثر ضيقاً تنشأ حتى في قلب علوم الآثار التي عددناها .

وبرد فعل ضروري وملائم يتجه الانتباه اكثر فأكثر الى العلاقات بين علوم الآثار : وهكذا تتقرر روابط جديدة في نفس الوقت الذي يجزىء فيه الاختصاص الدقيق — الذي لا يمكن تجنبه — الابحاث . واذا كان صحيحاً كما حاولنا ان نظهر ، ان معنى علم الآثار يتعلق بمعنى الحضارة ، فان جهداً كهذا للتجميع والتركيب لا يكون لإثارة الدهشة. فالفهم هو التقريب والمواجهة ، ولأجل اتباع ولادة ونمو الحضارة الغربية ، اريد ان اقول المتوسطية والمسيحية

والتي هي حضارتنا ، فان جميع الفاظ المقارنة مفيدة . وينتج شيئاً فشيئاً من الحفريات والابحاث عدد من الاعمال تُبنى بواسطتها . وببطء . معرفة للماضي اقل نقصاً . هجرات شعوب ، استعارات وتأثيرات . وتصبح اشارة « ارض مجهولة » اقل وجوداً على خريطتنا عن العصور الاولى من الحضارة . ولكننا بعيدون عن الهدف وعن استطاعتنا رسم جميع المظاهر .

هكذا اخذ علم الآثار يحتل مركزاً تزداد اهميته في هذه المجموعة الكبيرة من الابحاث التي يجب ان ندعوها « انسانية » والتي تمتد من اتنوغرافية الشعوب البدائية الى درس انبل الطرف الفنية . ومن الحق الاضافة ان الكلمة تستوجب فرقاً اكثر دقة : ليس علم الآثار علم مكتب فقط ، فهو مناضل في الغالب ، ويقتضي بحثاً فعّالاً مؤلماً احياناً وخطراً . وتذوق المغامرة والاكتشاف ينعش علم الآثار . لقد سخرنا من تدفق م . دي مرسيللوس الغنائي . ولكن من منّا لم يحلم ، لدى رؤية مرسى ميلو ، بحظ مماثل لحظه ؟ ...

فهرست

مطابع
أوفست كونزوغرافير
بيروت - لبنان - تلفون ٣١١٣٢٩

منشورات عويدات ١٧٧ /١٢/١٩٧٠

GEORGES DAUX

HISTOIRE DE L'ARCHEOLOGIE

Texte Traduit en arabe

Par

Bahige Chaaban

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris

علم الآثار

زدني علماً

- الاسلام / هنري ماسيه (١١) . . . .
- أضواء عربية على أوروبا في القرون الوسطى / نخبة من الأساتذة والمستشرقين (٢٠٥) . . . .
- تاريخ الأساطير / جان بيار بايار (١١٥) . . . .
- تاريخ بابل / مارغريت روتن (٩٢) . . . .
- تاريخ الجزائر المعاصر / ش. روبير أجيرون (١٣٨) . .
- تاريخ الحضارة الاوروبية / كلود دلماس (١٨١) . . . . . .
- تاريخ السوسيولوجيا / غاستون بوتول (٣٦) . . . .
- تاريخ العرقية / جان بوارييه (٧٥) . . . .
- تاريخ علم الآثار / جورج ضو (١٤٠) . . . .
- تاريخ قرطاج / مادلين هورس ميادان (٣٢) . . . .
- الحضارات الافريقية / دنيز بولم (٦٢) . . . .
- قيمة التاريخ / جوزف هورس (٧٦) . . . .

- تاريخ الثورة الفرنسية / ألبير سوبول (مجلد) .
- فلسفة الثورة الفرنسية / برنار غروتويزن (مجلد)

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Paris